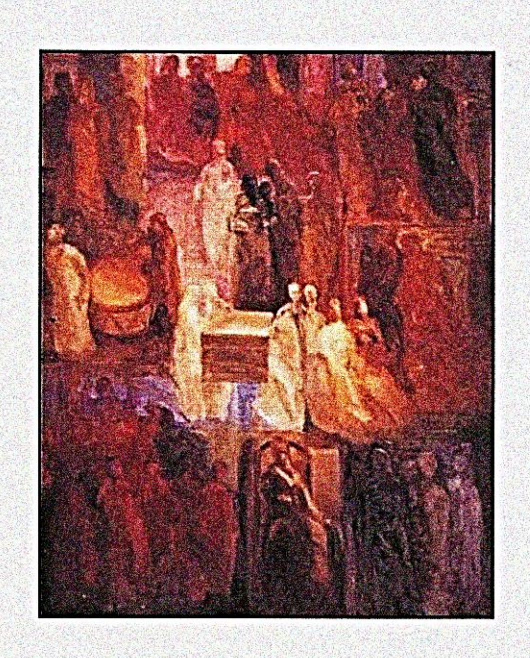
حيدر حيدر

مرايا النار

رواية



علي مولا

حيدر حيدر

مرايا النار

رواية

* حيدر حيدر.
* مرايا النار*
* الطبعة الثالثة 2000
* الناشـــــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* لوحـــــة الغـلاف: د. أحمد معلّا
* الإشـــــراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخـــــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيـــع
* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص.ب 4490

مرايا النار

(فصل الختام)

زمن الحكاية

«إحياء لذكرى امرأة ضائعة ،
التقيتها على شواطئ الأطلسي ،
أزمنة كنت تائهاً ، وغريباً فوق
دروب الأرض . المرأة التي وقفت
إلى جانبي وساندتني وأدفأتني في
أزمنة الصقيع ، وليالي غربة
الروح ، والوحشة ، وانكسار
القلب» .

بداية ، لنقل إنها حكاية غريبة ، حدثت لرجل غريب في مدينة غريبة ليست موجودة على الخريطة . أو هي حكاية مسلية لرجل يسافر وحيداً في قطار . رجل يستعيد وقائع الزمن على شكل دوائر في سهب فسيح ، كما طائر يعبر فضاء .

وكما يحدث دائماً ، ثمة مدينة غامضة لانعرفها تأخذنا الأشواق والتوقعات إليها . يشبه الأمر ولوج طائر مهاجر إلى غابة للمرة الأولى . هكذا حدث الأمر في الأيام التي عبرت . الأيام التي لن تعود ، والتي تحوّلت إلى مايشبه الطيوف .

القطار يشق السهول بهديره الرتيب . من النوافذ تُرى الهضاب والأشجار والطيور التي تخفق عبر سماء بلون الحرير الأزرق . الأشياء تمضي طاوية صفحات الزمن . والرجل المستند إلى إفريز النافذة يراقب انخطاف الأشياء التي تظهر وتغيب . حيناً خاطفة وحيناً بطيئة . ثمة محطات للراحة . خطوط حديدية متشعبة كأوردة الجسد . عربات صدئة ، جاثمة ، محملة بحصى ذي أشكال هندسية غير متناسقة . عربات على أهبة الرحيل .

رجل النافذة ربما كان يستعيد الآن ، من خلال هبوب الريح العذبة ، وقائع لايريد الوقوف طويلاً في محطاتها . وقائع أزمنة عبرت ينزع إلى نسيانها ودفنها في الأغوار العميقة للبحر .

لكن القطار يتموج في هذا السهب المترامي ، الغامض ، كما

يتموج البحر . تحت رنين هذه التموجات ، في هذه البقاع الغريبة ، تخفق طيور الحزن . طيور رمادية يطلقها الفراغ والفقدان ، هي ذي تنتشر فوق الأشياء أو تنبثق منها . إنها تشعّ ثم لاتلبث أن تغيب في ظلمة هذه الغربة ، وهذا المضيّ الخاطف والمؤلم لأشياء رست في أعماق الذاكرة .

* * *

في مكان ما ، ناءٍ ومنسي ، ثمة امرأة هي الأخرى ربما الآن تستعيد الوقائع نفسها . المختلِف بينهما ، هما النائيان الآن ، ربما كان تنسيق الأحداث ، وأهمية الذكرى . ثم هذا الإيقاع المومض للحزن . ولكن هل هي المرأة التي داهمها الجرثوم الغريب فخلخل عمل الخلايا ؟ أم أنها امرأة أخرى لاصلة لها بكل هذه الترَّهات التي يتخيلها عقل ملتاث بشهوة الثأر ؟

قد تكون الآن في فراشها ، أو وراء نافذة بيتها ، تراقب انسكاب المطر على الزجاج ، مأخوذة بحلم يقظة ينهمر عليها . حلم تاريخ مضى . تاريخها . لعلها تفكر الآن بالتبدل العجيب ، وتعاقب الفصول ولم يرسخ منها سوى الأصياف الحارَّة التي تبخِّر البحار والينابيع وتعيد الأشياء إلى الصحارى .

لم رياح الزمن تعفو المعالم فلا يبقى سوى الأنقاض ؟

ممر من الظلمة يكتنفه ضوء يراع في براري العشب . الندى يلمع والقلب منفطر في هذه البرهة . برهة الصدمة .

قلب المرأة يخفق تحت هذه السماء الماطرة . يبدو الجيشان من خلال تقلص أصابعها على إفريز النافذة ، ومن هذا الضغط المتواتر لثدييها على حافة خشب الشباك .

تبدو ، تحت برق هذا الغسق ، امرأة ذات جمال غريب . عيناها . قامتها . استدارة وجهها الأفريقي . الإشعاع الشهواني المنهمر من شفتيها ، وهي تتحدث بصوت نصفه مبحوح . الساقان إذ تنحسران قصداً أو عفواً . الساقان المتوهجتان اسمراراً من أشعة

البحر في الأصياف اللاهبة .

أهي امرأة الأزمنة التي اصطفتها الخطيئة لتكون وليمة الشهوة وتوبتها في ذلك الخريف الأخير ؟ أم هي محض طيف كاذب عبر في مخيلة رجل مريض ذات ليلة ؟

إن أحداً ما لا يعرف كيف طُوِيَ الزمن على ذلك النحو . كيف تَمَّ تغيير مجرى النهر باتجاه الصحراء . وكيف ضربت الصاعقة جذع الشجرة وأحرقتها !

مابقي هو الرمال وآثار الحرائق ، وهذا الدويّ المتواتر لإيقاع الذاكرة وصليل القطار في هذا الوعر المترامي .

يمكن أن يكون المشهد ، داخل اللوحة الكليّة ، قد حدث بغتة في ذلك الخريف المشؤوم ، آن عَبَرَ ذلك الرجل الجرثومي عتبة المنزل .

مايُلمحُ الآن خطفاً ، تحية خافتة ، خجولة ، ترتعش بالارتباك ، في البرهة التي لاح فيها وجه المرأة واشياً بلا مبالاة ودهشة الصدمة .

كم هو صعب تخيل تفاصيل اللحظات الأولى للقاء رجل وامرأة في ذاكرة عمرها ربع قرن من النسيان والغمرات !

مايُمكن تذكره هو الطيوف . مدارات تغزوها بروق في أغساق بعيدة الغور .

إنها البروق ولاشيء آخر .

هكذا فكرت تلك المرأة التي ستسمّى دميانة ، وهي تحاول استعادة الدقائق والساعات والأيام التي تفرقت كالأصداف والحصى بعد انحسار الموج .

هو هناك جاثٍ عل الديوان المنقوش بصور الفراشات ، عيناه تحومان في فراغ الغرفة . يرى جداراً عارياً . في مواجهة بصره صورة لطفلة تحبو فوق بساط تقطعه مربعات حمر وبنفسجية علّقت على الجدار . طفلة في عامها الثالث يثبُ الضحك من عينيها وهي

ترفع ذراعين غضتين داخل فراغ ملون هو لون الصورة .

هل لمح النصف الأول من الجسد . ثم الساق المطويّة ، العارية ، في تلك البرهة المفلتة من عقال المراقبة ؟

بحركة آلية ، شبيهة بحركة تمثيل ، أخرج سيكارة ثم أشعلها . فعل ذلك بتوحد ولا مبالاة .

كان حضور هذا الغريب إلى بلدتنا غامضاً . إشاعات متناقضة انطلقت حوله ، قبل أن يدخل البيت : رجل ثري يملك حسابات مصرفية في أوروبا ويبحث عن مشروع تجاري . آخرون قالوا بأنه أستاذ جامعي فارٌّ من الخدمة العسكرية قدم من المغرب عبر الحدود . في حين أشاع آخرون بأنه رجل مغامر يهوى التجوال وربما كان مطلوباً في أمور سرية تتعلق بالإرهاب والسياسة .

هذا الرجل أمامي الآن . يبدو لي من خلال صمته الكتيم لغزاً لايدعو للثقة . ومع ذلك فإن حركاته وشروده يثيران فضولي . قبل أن يأتي به أحد الأصدقاء ليستأجر غرفة في بيتنا المشرف على البحر ، كنت أخوض جدالاً مع زوجي الجاثي في السرير ، حول احتمال إيجار غرفة زائدة نستخدمها للمؤونة أو الأثاث المحطم الفائض عن الاستعمال .

ـ ليس الأمر ضرورياً يادميانة .

ـ إسمع ياعزيزي . أنت الآن في وضع صعب وراتبك التقاعدي لايكفينا رغم جهدي في عمل الخياطة . ماالخطأ في إيجار غرفة مؤونة مهملة تسدّ بعض احتياجاتنا ؟

ـ ولكن ، أنت ياعزيزتي هل ترين ذلك لائقاً ؟

ولأن ذلك الزوج المنكسر اعتاد الإذعان لرغباتي . قلت : بلى !

بعيداً عن هذا الذي جرى بيني وبين زوجي ، الآن هذا الغريب الذي هبط علينا في ذلك الغروب ، يبدو لي ، وهو يتحدث عن رحلته المتعبة ، كأنه رجل هبط من كوكب آخر .

أتذكر الآن كيف كنت محايدة في اللحظات الأولى أمام هذا

الوافد الذي لاأعرف حتى اسمه بعد . لكنني عبر ثقوب حيادي كنت أتملى بفضول وجهه المتعب ، ونحوله ، وشعره الطويل المشوّش ، وحركات يديه المضطربة ، وسترته الرمادية . كان هناك ، بعيداً ، أراه كمستأجر غرفة . ماكان فيه أي شيء جذّاب سوى هذا الغموض الباهت المومض من عينين متخنتين بالسفر ورماد الحزن .

مايتراءى على شاشة الذاكرة في القطارات ، عبورها السريع ، وطيوف الأشياء المنخطفة أمام البصر . إيقاع رتيب لتلك العربات وهي تهدر فوق السكة . العينان مع الأذنين تشترك في التقاط لون الأشياء ، وهدير الصدى . حاسة أخرى بين اللون والصدى ، تنبثق لتبدِّد الرتابة : الذكرى .

ذكرى امرأة عبرت في ماضي الأزمنة ، ثم امّحت .

لعل كلمة الامّحاء ليست بالكلمة الدقيقة الآن في هنيهة الإيماض . هي ذي الآن ، كاللوز البرّي ، تزهر في غابات القلب .

المرأة الغريبة في المدينة الغريبة . تلك التي تحلم بالغريب المعرّى من الأسلاك والفخاخ والماضي الموحل ، والرجل الباحث في أرشيف الظلمة عن امرأة الزمان المشعّ .

إنها هنا ، تخفق كطائر الخطّاف في سماء بلون البحار وصفائها . المرأة الملعونة ، هدية الرجل الملعون في زمن العواصف والاضطراب .

في الزمن الروائي .

* * *

تنبثق الصور كما الشهب في سماوات نائية . المرأة التي وثبت الآن واحتلت الشاشة ، متزوجة منذ أعوام سبعة ، أم لطفلة وحيدة . عندما دخل الرجل الغريب حَبتِ الطفلة على البلاط مقتربة منه ، ضاحكة . عصفور ملوّن ، هشّ هشاشة زهرة ياسمين . آن رَفَعَها عن الأرض ، ثم ضمّها وعانقها ثم قذف بها إلى الفضاء مداعباً ، شهقت المرأة بحركة تمثيلية : لا . أرجوك !

من الصعب ترتيب الأحداث بتسلسلها . هي ذي تأتي كدائرة لاتعرف من أية نقطة بدأت . هذه الشهقة ربما اندمجت أوتصادت ، فيما بعد ، مع الذعر الأول لبداية التماسّ الذي حدث بينهما في ذلك الأصيل الممطر .

كانت خلاياها تنبض باللهفة والخوف والشهوة . وبدا الإشعاع من خلال ثوب نومها الحار والشفاف ، يفضحُ جسداً أبيض يرتعش توقاً إلى الموت . وآن انْحَسَرَ الثوب الحريري وظهر فخذاها الرخاميان ملوّنين بحبيبات شهوية ، ماءت كهرّة : لا . أرجوك . في محاولة صدّ لتحسُسِ أصابعه بُثُورَ الشهوة الجاهزة للانفجار .

هل كان ذلك بداية فجر تسلل الجرثوم ليعطب الخلايا ، ولينشر المرض في الجسد الرخي المستكن ؟ أم أن تلك الخلايا كانت تختزن الفيروس منذ بداية الخليقة ؟

الآن تتصادم الصور من شرفة هذا القطار . مشهد البيت ، ومشهد المرأة ، ومشاهد الحلم .

بيت ذو غرفتين . ممر ضيّق ومطبخ صغير ، ثم الغرفة المتصلة بباب المطبخ . غرفته شبه المعزولة عن البيت .

في المطبخ المشترك كانوا يجتمعون على الغداء المُعدّ لثلاثة أشخاص ، بينما الطفلة تثب حول المائدة من حضن إلى آخر ، منتشية بدلالها وأنانيتها الطفولية .

يبدو ، من خلال الإيقاع اليومي ، أن الرجل الوافد على البيت ، ماعاد غريباً . إنه يأكل مع العائلة ، ويلاطف الطفلة ، ويشارك الزوج اهتماماته البليدة وثرثراته التي لاتنتهي .

ـ ليس بالأمر السهل أن تعيش في عالم سيء كعالمنا . عالم مليء بالجشع والحقد والأنانية والنميمة . الكبير فيه يأكل الصغير . الناس فيه فقدت الأمان والثقة والضمير . غابة حيوانات صدقني أخي ناجي هذا المجتمع الملعون الذي وصلنا إليه .

ويستطرد وهو في كرسيه ذي العجلات : أنا لاأكتمك . بيني وبين زوجتي كان هناك جدال حولك . أقنعتني بأنك رجل نقي وفي رأسك مشاريع مفيدة للبلدة . أنت الآن صديق العائلة وهذه المرأة هي سندي في محنتي . أقول لك بصراحة ، رغم حالتنا المضطربة ، أنت كأخي وبيني وبينك عهد الله وميثاقه في السرّاء والضرّاء . البيت بيتك ودميانة أختك ومايصيبك يصيبنا .

كم بدا الرجل مهزوزاً ، وخائفاً ، ومغلوباً ، وهو يثرثر على المائدة ! بعد قليل سيدحرج عجلتي كرسي الشلل النصفي باتجاه غرفة الجلوس أو النوم . ذلك الزوج الذي باغته طائر الحزن الجارح في هذا الوقت الصعب .

آنذاك سيبدو في عين الغريب ، رجلاً عاجزاً ، مدمَّراً بالمرارة وجراح الشفقة .

مايُبرق الآن من شرفة هذه المقطورة أسئلة لاأجوبة عليها : أين هي الآن تلك المرأة ؟ هل هي في المطبخ تعدّ الطعام الشهيّ لرجلين أحدهما الزوج والآخر العشيق ؟ أم هي تنتظر وراء زجاج النافذة باقات ورد العاشق ، ضاغطة نهديها الصلبين على إفريز الشباك وهي تبكي فراق البحر .

في رسالة سرّية ، كان يدسها لها تحت بطاريات الراديو الصغير : تذكرينني في زمن الأمطار . المطر الغريب يحيي الأرض الموات .

كانت الرسائل تدهشها . تسبب لها نوعاً من الدوار أو الإغماء يصل حدود الاستثارة الشهوية : اكتب لي دائماً . كلماتك مطر تحيي يباس الروح .

من شرفة القطار رأى سرباً من الزرازير تحوّم كسحابة سوداء ، مالبثت أن تكاثفت فوق أغصان شجرة عارية .

غمامة حزن تقبل من بلاد بعيدة . سحابة ستُمحى بفعل الرياح الخريفية من سماء امرأة لاتمطر . بعد أن تنقشع السحابة تشعر

كأنما اجتزت نفقاً كهذا الذي يعبره القطار الآن .

حقول برتقال مترامية مدّ البصر . تمتد وتتراجع كتموجات بحر تحت أصيل حريري ، عذب .

بقليل من الجهد يحاول إزاحة صور أخرى تتناكب لتحتل الشاشة : الماضي الهارب منه . الماضي الذي ليس حياً ولاميتاً .

في ليلة ماطرة ، وهما عاريان في غرفته ، سألته المرأة عن ماضيه . مدّ سبابته إلى بثَرَة أرجوانية في جبهتها وضغط عليها . خرجت نقطة صديد بيضاء كبذرة . جرفها بظفره وقذف بها جانب السرير .

ـ هذا هو الماضي .

ـ لكل ماضيه . لماذا يخجل الإنسان من صديده وعرق جسده ؟

ـ أسألكِ . قولي الصدق : ماعدد الرجال الذين عرفت ؟

ـ لم أَحْصِهم . وأَنا لاأشعر بالعار أو الندم .هي حياتي أولاً وأخيراً .

ـ والآن ؟

ـ والآن أيضاً .

وعلى غير ماتبدت الأشياء له في الأيام الأولى لتعرُّفِهِ على هذه المرأة ، يلوح الآن الجانب الآخر من جبل الثلج الراسي في الماء .

للوهلة الأولى بدت له امرأة واثقة من نفسها ومما حولها . ذكية ، مليئة بالحيوية ، والحبور الاجتماعي . تحب منزلها وطفلتها ، كما توحي بإخلاص ، لايقبلان الشك ، لزوجها المقعد منذ ثلاث سنوات إثر حادثة سيارة مات فيها أربعة ركّاب ونجا هو بعد أن شُلّ نصفه السفلي . كان الزمن ، زمنها اليومي ، يجري برتابة منطقية تتسم بالهدوء والغبطة . زمن ينساب ، في الداخل والخارج ، انسياب كرة مصمتة فوق سطح من البلّور المائل .

هكذا كانت تتراءى في المشهد الأول لبداية الحكاية .

ماحدث بغتة ، فيما بعد ، أن تلك الكرة توقفت فوق السطح الصقيل . كما بدا أن الشمس التي كانت تشرق وتغيب في مواقيتها الطبيعية ، اضطربت وأصيبت بكسوف .

حالة جديدة طرأت على عالم المرأة فانكسرت قوانين الأشياء وتخلخلت نواميس الطبيعة .

لابد أن اهتزاز حركة القطار لاتسمح بالكثير من التركيز . وربما كانت السبب في خلخلة الأحداث على هذا النحو غير المنتظم . مايعود إلى الظهور عبر هذا المضيّ المندفع : غياب المرأة الآن والتحافها في غيهب الزمن .

شظاياها ، أو بروقها الخاطفة ، هي التي تلوح الآن ، تحت تأثير هذا الجيشان الداخلي للذاكرة ، عبر قطار يشقّ سهولاً ونجوداً طولها أكثر من خمسمائة ميل .

داخل وميض بعيد هي ذي قامة المرأة الناهضة . إنها تتراءى هناك على خط الشفق مرتدية ثوباً بلون ثمرة خوخ ، تتهادى على رمال الشاطئ وهي تراقب طفلتها التي تعبث بحبيبات الرمل . زوجها الذي يدفع عربته ببطء ينظر إلى أمواج البحر ، تاركاً مسافة بين الزوجة والغريب .

إذ تحفِنُ الطفلة حفنة رمل وترشقها باتجاهه فيصيبه منها بعض رذاذ ، تغرغر الطفولة بضحكة فيها عذوبة ونشوة الإصابة .

تنحني الأم لتكتب أو تخطّ شيئاً ما بإصبعها على الرمل المصقول الرطب ، فتنحسر تنورتها . اللون الرمّاني لفخذيها البهيجين يضيء قرب حافة الموج . كانت تعرف أنه يراقبها من الوراء ، وإذ تطيل زمن الانحناءة ، تؤكد المرمى الذي تهدف إليه . سهم الغواية لاختبار رجل يبدو صلباً من الخارج . رجل ، حتى الآن ، يتشح اللامبالاة والإغضاء عنها .

في تلك الهنيهة ، ربما تذكَّرتْ ماقاله عن المرأة في البيت : المرأة في بلادنا غالباً ماتكون دمية من البلاستيك والديكور المنزلي

والثرثرة الخرقاء .

ليلتها كان يتحدث في السهرة حول مسائل الدين والكبت والقمع والتخلف والعلاقات الكاذبة والمزيفة في المجتمع . كم بدا لها آنذاك قاسياً . بل محطماً بيأس عميق . ينزف بعدوانية بدا شرُّها واضحاً في لهجته وانحرار عينيه وعصبية الأصابع المرتعشة .

وإذ سأله أحد الحاضرين : ألا ترى في الغابة برعماً أخضر ؟ رفع قبضته في الفراغ وسحج بأسنانه : بلى ، بعد الحريق . الآن لاشيء سوى تفسخ جذوع وجذور الغابة .

لكم كان منفراً تلك الليلة ! قالت لنفسها وهي تأوي ، ممرورة ، إلى فراشها .

عندما حاذاها سألته بماذا يفكر الآن : إنني أرى البحر . وتابعت بسذاجة طفل سؤالاً توخَّت فيه الذكاء والحرج : بماذا يذكرك البحر ؟ لم يستشف من السؤال مايثير فاكتفى برفع منكبيه . تناول حصاة مسطحة وقذف بها سطح الماء . بدا السؤال كأنما قذف مع الحصاة . بإلحاح أعادت صياغة السؤال بشكل مباشر : أيهما أحب إليك المرأة أم البحر ؟ كان يراقب دوائر الماء المموجة بعد رمي الحصاة .

على غير انتظار ، وهو في حالة امتعاض ، فاجأها : لاتنسي أنك امرأة متزوجة وأنا رجل غريب ، عابر .

نزهة عائلية على شاطئ بحر ، هذا مايُطلق على مثل هذا المشهد . كان الزوج في المقدمة يدفع براحتيه عجلتي العربة فوق الرمل المبتل . بصعوبة كان يفعل ذلك وهو يراقب لعبة خطرة لفتاة تتزلج فوق الماء . رآها تندفع بسرعة هائلة وراء زورق بخاري يشق سطح البحر كقذيفة طوربيد . كانت الفتاة نصف العارية منتصبة بين الزبد والموج تعلو وتهبط كطائر بحري يتهيأ للطيران . امتصت المرأة جواب الرجل الجارح . غير أنها بغريزة الأنثى المشاكسة ، قالت ساخرة : لكنك أمس تحدثت عن العلامات المزيفة وخراب

النفوس !

كانت تنزع لكي تقول الأشياء بشكل آخر ، ربما هجست بها . لابد أنها منتشية إلى حد ما بهذه الألعاب اللفظية التي تجاهد في اختيارها كي تبدو ذكية في عينيه .

شيء مفاجئ حدث في تلك اللحظة . اختلّت عربة الزوج فمالت وانقلبت فوق الرمل . سارعا معاً لإعانة الرجل الملقى ورفعه . في تلك اللحظة المربكة اصطدمت كفّ الغريب بثدي المرأة . حدث الأمر بعفوية وهما يرفعان الزوج إلى عربته .

المصادفة التي ستطلق شرارة برق مختزن في سحابة .

توقف القطار في المحطة التالية . نهض الرجل من مقصورته إلى الشرفة . مسافرون يهبطون وعمال يتحركون في ساحة المحطة . بعيداً لاحت الهضاب باهتة تغوص في هلام الضباب . في سفوح المراعي فوق الأراضي الرطبة ، كانت تنتشر قطعان الماعز وهي تتسلق شجيرات السنديان والكرمة . إلى يمينه رجل وامرأة يتمليان الفضاء من شرفة القطار . فسحة على شكل قوس من خصر المرأة بدت عارية . مساحة جسد بنية في لون جذوع الكرمة ، شعَّت تحت غروب كابٍ . سمعهما يتحدثان بلغة غريبة : هنديان أو باكستانيان ربما ، ذراع الرجل تطوق عنق المرأة وهما منحنيان على إفريز الشرفة . عالم جديد يتراءى الآن عبر هذا السفر . أهو الواقع أم ضربة كابوس ؟ أم أنه الرؤيا اللاشعورية لرجل داهمته الظلمة في أزمنة غَبَرت ؟

مايدركه الآن ، أن غبطة تهبط على روحه في هذا الهزيع الملتبس ، هنا يمكن دفن رمّة الزمن الغابر والبدء من جديد فوق أرض لاتعرفك .

إلى الجحيم كل ماخلّفته وراءك .

هو ذا النور ينبثق مرة أخرى من فجوات الأفق . تموُّج جليل للفضاء والأشياء : الحياة تنبض رغم فداحة الموت الذي رأيت . أنت

الآن رجل طليق تحت سماء رحبة . بعيداً جداً عن مجرات الألم والموت . النسيان . هذا ماينبغي أن يكون . عطب الذاكرة وتدميرها .

حينما تأهَّب القطار للحركة مطلقاً صفيره المنفِّرْ ، وبدأ يندفع بطيئاً ، متواتراً ، امّحت الصور القديمة المؤلمة . رست كصخرة ثقيلة في قاع البحر .

كما تهتم وتعتني أم بابنها بعدعودته من سفر طويل ، هكذا راحت تلك المرأة تولي عنايتها للرجل الغريب القاطن لديها . هو الآخر كان يشعر بالامتنان العميق ورائحة الحنان . في غيابه كانت الغرفة تُنظَّف وتُمسح ، والسرير يُرتَّب . وغالباً مايفاجأ بأصيص ورد على الطاولة المستطيلة . وفي أوقات الغداء كان يُدعى لتناول الطعام مع العائلة في المطبخ الضيِّق . وفي الصباحات كانت القهوة تصله بعد لحظات من استيقاظه .

كذلك بدت الحياة في الأسابيع الأولى لكأن أخاً جديداً انضم إلى أسرة صغيرة تعيش في بلدة صغيرة شبه منسية غرب العاصمة . أسرة مستورة نُكبت بصدمة هذا الزوج البائس ، المقعد .

ثلاثة عوالم تعيش في مدار مجرّة واحدة . أو قل أربعة إذا ما أضيفت الطفلة . عوالم تبدو حتى الآن شبه مستغلقة من الداخل : لم تُكْتَنَهْ بعدُ أسرارُها .

حالة الشرود ، المشوبة بنفور ، مع ميل واضح للصمت إذ تبدو على الرجل الغريب المسمى ناجي العبدالله ، عزَتها الزوجة دميانة إلى البعد عن الأهل والحنين إلى البلد وعدم التلاؤم مع المناخ الجديد .

غير أن الأمر بدا لها بعد شهرين كأنه حالة مستمرة . الغموض ، والتوجّس ، والانغلاق ، والحدود التي رسمها بينه وبين العالم ، وعدم الإفصاح عن ماضيه ، تركتها في حيرة . من يكون هذا الرجل ؟ ولماذا جاء إلى هنا ؟ ومالذي ينوي عمله في

المستقبل ؟ وهل حقاً هو هارب من الحرب ؟ وهل ماأسرّه صديقنا حسين القصار إذ قدمه لنا في اليوم الأول هو الحقيقة ؟

حتى الآن لم تكن هناك أجوبة واضحة عن تلك الأسئلة .

آن كان يتاح لها الانفراد به في غرفته ، أو خلال نوم زوجها ، كانت تحاول اقتحام صمته . بوجه جهم خالٍ من أي حنان إنساني كان يزجر فضولها وتطفلها نحو الأسرار الشخصية : أنا مستأجر أدفع لكم وكفى . افهميني جيداً أيتها السيدة المحترمة . وإذ كان يُلمح إلى احتمال الشك به واستعداده للرحيل ، كانت تعتذر عن حماقتها وحسِّها الفضولي .

لقد قدمه الصديق المشترك هارباً من الحرب في لبنان ، يوم سألهم عن غرفة إيجار . لكنها بحدس غريب ، لايدرك كنهه التبس الأمر عليها فيما بعد . زوجها أخذ الأمر حقيقة واقتنع ، أما هي فقد استوطنها الارتياب .

ومع أن الغريب أوضح بأنه يبحث عن عمل في العاصمة ومتى وجده سيرحل ، إلا أن هذا الإيضاح ما كان شافياً . لقد وضعها ذلك الإيضاح المختزل على أبواب متاهة جديدة من الشك المعذِّب . يومها أحسَّت أنها مؤذاة من خلال النبرة المتعالية التي جابهتها . بدت كلمة «مستأجر يدفع» تقيم بينهما سداً سيكون من الصعب اختراقه في مدى قريب .

عبور القطار في السهوب المترامية ، يولد صوراً واسترجاعات وأحلام يقظة . وقائع وأزمنة تأتي وترحل كما الطيور في مواسم هجراتها .

هانحن إذن نحكي حكاية غريبة في هذا القطار البطيء المتجه شرقاً عبر سهوب افريقيا الخضراء . حكاية ملتبسة ومقنعة من الصعب الإفصاح عن مكنونها في الزمن الضاري .

فالأمكنة قد لاتكون هي الأمكنة تماماً ، كذلك الأزمنة والوقائع . هي قصة حبّ وموت وغيرة ربما ، وربّما كانت مرآة

مثلثة الوجوه تشبه موشوراً متحركاً تتراءى الأشياء عبره كسراب .

حالة استقراء وذكرى دفينة ، غامضة نوعاً ما ، واضحة في بعض زواياها ، مضى على تناثرها أكثر من عشرين عاماً .

هذه المقصورة اللعينة لابد من مغادرتها بين حين وآخر . عجائز وأطفال يثرثرون بأصوات وحشية . لابد أن الضوضاء لاتسمح للذاكرة والجسد بالصفاء والهدوء .

الأصوات والوجوه المتعبة خالية من أي معنى سوى الضيق والأنانية وسيماء الملل .

حتى عندما كان يحاول القراءة في مجلة أو كتاب ، كان التركيز يتشتت بانفجار الصرخات وفتح الأبواب واغلاقها باندفاع عصبي أخرق . بين صفحتين ينغمر وجهه في الكتاب ، مُرخياً جسده بانحدار نحو حافة النافذة .

فجأة تتشكل تلك الاستقبالات الضوضائية داوية في البعيد ، ومدوِّمة ، ساحبة عبر ذبذباتها الأثيرية غبار مدينة ضُربت بالقنابل والرشاشات والصواريخ والغازات السامة فزُلزلت أسُسُها ثم تقوضت وهُجِرت من كل حيّ .

ولكن هل هي المدينة تلك التي استُبيحت ثم مُسحت عن وجه الأرض ؟ أم هي أصوات الرعب للناس الذين فاجأهم الجحيم من كل حدب وصوب كما في يوم القيامة ؟ أم أنها صيحات وأنين الأسرة التي غاصت في دمائها وأشلائها عشية ذلك اليوم البربري ؟

إيماضات كالبروق تأتي من أزمنة غبرت . من الصعب الاستدلال على ينابيعها ومواصلة انحراف سواقيها . لابد أن اهتزاز الأرض بتلك القوة الساحقة ، والعمياء ، أفقد الرأس القدرة على التوازن والمحاكمة .

عبر هذا الرنين ، المخلخِل للحواس والعقل ، والرغبة الجامحة إلى النوم ، حوّم في الظلمة طائر أسود : هل تحولتَ إلى شيء فائض عن الحياة ؟

بصعوبة كان يحاول إزاحة هذه السحب السوداء التي تقبل في لحظة الشرود والاسترخاء . ماكان الاشتباك ليستمر طويلاً ، لكن الآثار كانت تبدو كأثلام عميقة في أرض الذاكرة التي لطخها ازدهار الدم .

ماهو واضح ربما ، أن هذا المد والجزر بين الزمن الذي مضى ، والزمن الجاري الآن فوق عجلات القطار ، سيستغرق هذه الرحلة الغريبة التي بدأت أو هي تدخل أطوار نهايتها .

❊ ❊ ❊

أسبوعياً كان يغادرنا إلى العاصمة بحثاً عن عمل كما أوحى لنا . بعد يوم أو يومين يعود . يسأله زوجي إن كان وفق في سفرته فيرد بأنه موعود بعمل في وزارة الإعلام أو التربية .

ـ مواعيد المسؤولين في بلادنا عرقوبية . كلام النهار يمحوه الليل .

يشعل الرجل سيجارة ثم يضع ساقاً فوق أخرى . واضح من زفراته أنه كئيب ، بلا أمل . أنا قرب زوجي على الديوان المقابل له أتفرس فيه خطفاً آن لايكون منتبهاً . أرى في جبينه ندبة ، أثر جرح أو صدمة ، يصعد السؤال إلى الشفتين ثم يتراجع خوف النهر . ماالذي تحتويه تلك السلسلة الفضية المدلاة داخل صدره ؟

ومع أنه لايبدو جذاباً بصلعه البادي في مقدمة شعره ، وغمازتي خديه ، بحيث يبدو أكبر من عمره الحقيقي ، وقامته الأقصر من قامة زوجي ، إلا أن عينيه الحادتين ، والمحرورتين ، وذقنه الشعراء المدببة ، كانت تكسبه مهابة غامضة ، ومسحة من الحلم . يذكرني بطيوف من الشعراء أو الصعاليك المتشردين الذين قرأت عنهم أورأيتهم في الأفلام الأجنبية .

بعد أن نهض وذهب إلى غرفته ، انكشفْتُ متلبسة به . هَجَسَتِ النفس : أيكون السراجَ وأنا الفراشة ؟ أي ارتباك لعين أن تواجهني هذه البلبلة !

ومع أنني لست محصَّنة في مواجهة الأعاصير ، منذ الصدمة التي اجتاحتني وأنا في فجر فتوّتي ، إلا أن الزمن القديم أوغل في الغياهب ، وهذا الزوج البائس الذي قُذفتُ إليه ، عنوة أو تغطية للفضيحة ، يستحق الشفقة ولايبدو قادراً على احتمال الجرح .

ولكن هل أنا فريسة أقدار تتقاذفني ككرة صماء ولاأستطيع التحكم بها ؟ وأين تكمن نقاط ضعفي وانهيار قدرتي في مواجهة قدري المحتوم ؟

أمي ، التي تأتيني الآن موشاة بالبياض ، وهي تمضي بقية عمرها في مصحّ الأمراض العقلية ، إثر إصابتها بالانفصام ، كانت تقول لي وأنا في الثالثة عشرة : أنت جميلة يادميانة كزهرة أقحوان . انتبهي لأصابع الرجال وهي تتسلل إلى سوقِك . الأصابع التي تشبه حدّ المنجل .

كم كنت أضحك ساخرة من تفكير أمي الأخرق . عقل القرون الوسطى الذي ورثت ظلامه من أجداد أجدادها عبر آلاف السنين الدينية .

ـ الحياة تُعطى مرة واحدة ، وعلى الإنسان أن يحياها بكل طاقته دونما ندم ياأمي .

في ذلك الزمن الفتيّ ، والمتألق ، كانت روحي الحالمة والطائرة ، تحلّق ، وتسمو ، منطلقة كما السنونو الذي كنت أراقبه من نافذة بيتنا المجاور للبحر في مدينة مليلة ، وكانت أمنيتي المستحيلة أن أكون سنونوة . كانت الأنثى تنمو وتكتمل في ربيع الخطر . خلاياها تتدفق بالأشواق والرغبات والشهوات البدائية الحارّة . ملايين الأصوات والنداءات والروائح الحميمة كانت تضج وتضطرب في جسد غرسة الأقحوان .

ـ دميانة ألم تسمعي صوت الطفلة تبكي ؟

صوت زوجي عبد الرحمن أيقظني من شرودي . هُرِعْتُ إلى غرفة النوم . بوران تقف في السرير ممسكة بالحاجز المعدني .

وجهها الياسميني بلون الأرجوان والدموع تطفر فوق خديها : ماما . ماما . تيدي .

أخذتها بين ذراعي وضممتها . رائحة نومها مزيج من العسل وأوراق الغار : ماالأمر ياحبيبتي ؟

مع الرعشات الأخيرة لشهيقها المتلجلج ، وهي تشير إلى لعبتها المنكفئة على ظهرها قالت : بابا جرح تيدي في عينه ورماه في البئر .

كان الدب ـ اللعبة نائماً في أحضانها وهي على أبواب مملكة النوم . ماالذي قذف به نحو الأرض من السرير إلى أرض الغرفة ؟ انحنينا معاً نحو الأرض . تناولت بوران دبها بحنو . داعبت وبره السنجابي وقبلته في عينه غير المؤذاة . كانت اللعبة سليمة .

ـ هنا ياماما وأشارت إلى بؤبؤ العين .

ـ لكنه سليم ياحبيبتي . انظري لم يحدث لدبّك أي أذى .

استلقيت وإياها في السرير واللعبة بيننا : لابدّ أنك رأيت حلماً مزعجاً . ولأسرِّي عنها وأنسيها حلمها الكابوسي قلت لها بأننا سنذهب عصراً إلى شاطئ البحر ومعنا عمو ناجي وبابا لنرى النوارس البيضاء والأسماك الطائرة والزوارق الشراعية .

ـ ومعنا تيدي . الإسم الذي أطلقته على الدب المُهدى لها من ناجي العبدالله عشية عيد ميلادها . تلك الهدية التي شُغفت بها أكثر من جميع ألعابها الأخرى .

ـ طبعاً ياحلوتي .

أضافت فجأة : لن نضعه في عربة بابا . سأضعه في حضني .

هي ذي الأحداث تثب خارقة سياقها الزمني . إنها تتقاطر من سماء ذاكرة غطاها عشب النسيان ، تقاطر هذا المطر الذي يهمي في الخارج .

هذا الغريب العابر في البر الأفريقي يحاول النوم لينسى . يستتر باللامبالاة وحياد الحجر ، بعيداً عن ألعاب كون عبثي قذفته

المصادفة العمياء من العدم المظلم .

أية فائدة من استرجاع الماضي ؟ ليمُتْ وأبدأ من جديد . لاشيء يوقف هذا الانهيار والانحدار نحو الهاوية . لقد اجتيح العقل تحت الحوافر البربرية ولاأمل في شروق الشمس مرة أخرى . ولكن أين هي نقطة البداية في الزمن الأعمى ؟ أتبدأ أنت الأشياء أم هي التي تبدؤك في اعتراضاتها المباغتة ، واللامعقولة ؟ وهذا القطار الثرثار إلى أين يمضي بك ؟ وماذا في المحطات التالية ؟ ويوم وقفت على صخرة البحر وهويت في لجِّ الماء هل كنت تدري إلى أين الرحلة القادمة ؟

الحقيقة الوحيدة هي هذا القطار الذي يشقّ السهب والهضاب والأودية . كأفعوان ضخم يهدر ويتلوى . لايتعب ولاينام ولايضجر . استحال النوم . غادر المقصورة وراح يمشي فوق الممر الضيق . مسافرون يقفون وراء زجاج النوافذ وفي الشرفات . يحدقون في الفضاء وفي اللاشيء وعبر ذكرياتهم . أرض الممر وسخة تتناثر عليها النفايات وأعقاب السجائر . روائح حمضية ، حامزة ، تجرح أغشية الشم . صداع في أعلى الجبهة سببته اليقظة ووعثاء السفر وهروب النوم . المقصورات بعضها مغلق وبعضها مفتوح . من إحدى المقصورات عَلَت موسيقى . تحت مرمى التفاتة صدرت منه رأى فتاة وفتى نائمين على مقعد وبينهما مسجلة .

ـ ليس في رأسك سوى النيران . تعلم سماع الموسيقى . الموسيقى هي السلام الروحي للنفس المتعبة .

انهمرت العبارة شبيه نيزك يومض في ليلة بلا قمر . همساً سمعها قرب الراديو الجاثم على الكومودينو .

كان الرجل المقعد يراجع في عربته فواتير نفقات البيت من الطعام إلى الكهرباء إلى المؤونة ، ويسجل في دفتر صغير مداخيل زوجته الشهرية من آلة الخياطة ، مقارنة مع الأشهر التي مضت ، ومايرسله أخوه من حوالات بريدية كل عام .

ـ هناك نقص في الدخل دميانة . خاصة الأشهر الأخيرة .

ماكانت المرأة تسمع زوجها . أو أنها تسمعه فلا تبالي بما يقول . إنها تصغي للموسيقى الراشحة من الراديو . تحدّق بتركيز في وجه الرجل الغريب لتستكنِهَ ماوراء عينيه . ماوراء هذا الحجر الصلد . في ذلك الزمن كانت تقول الكلمات بعينيها . العينان المفعمتان بالرجاء والضراعة ، والتوق الخفي للاستسلام الوديع بين ذراعي هذا الهارب ، المغطى بضباب الحنين وأيكة الموت .

في غمرة دوارها الشهوي ، الملتبس ، والمدرك من جانب واحد ، بين ظليل وعيها ولا وعيها ، كانت تعمى عن وجود زوجها وهي تراوغ الغريب وتراوده لمحاً . الزوج الحيسوب الذي يراقب حتىخلجات أحشائها بعد هبوط هذا الرجل المبهم بينهما .

فيما بعد في زمن السكين التي تُستل للطعن غدراً ، سيبدأ الزوج حلّ رموز الإشارات التي سترسلها قرون استشعار الجرثوم الوافد . وفي ذلك الوقت الماكر سيصبح طعم الطعام فاسدَ المذاقِ في البيت المضطرب ، والكريه .

إنها تلك اللحظة الراعشة بما كان وماسيكون من دمار الأزمنة والأجساد الجاهزة للعطب ، وانهيارات الروح ، ارتفعت الموسيقى عبر هذا الاضطراب ، وتألق الغدر الواشي ، مهاداً من العشب والندى والصعود السماوي . العشب الذي سيهويان داخل أريجه العبق في أوقات السرّ والخيانة المنعشة للخلايا ، آن يكون الله والزوج والطفلة ملفوفين في لجّة ضباب النسيان .

* * *

هو الإيناس حتى لانشعر بالكآبة . اقتراب من حكايات شهرزاد في الأزمنة الغابرة . إنما هنا ينبغي الحذر من الفخاخ المنصوبة في درب الحكاية . إننا نحاول في هذا العصر الملغوم رواية وقائع مؤنسة ، مؤسية بعض الشيء ، لنزيح هذا الكابوس اللعين : الضجر .

وإذا كان لابد من قول الحقيقة ، وهي في الحكايات غير ضرورية ، فإن القسم الأكبر من هذه السيرة المتحركة التي تلت

ولوج البحر ، لايعدو كونه تركيباً شهوانياً ينزع إلى السير فوق صراط الجنة والجحيم عبر مطهر الموت .

سيرة هي في أصلها التاريخي سيرة ناجي العبدالله الذي أبيدت أسرته في العاشر من محرم ، وبقيت كربلاءُ ظليلَ الزمن الشاهد على الجريمة الغامضة .

ولكن ثمة حكايات ذات معنى ، وحكايات خاوية سوى من الهراءات ، وحكايات ملتبسة في مجازاتها . غامضة لكنها مشعة كعروق الماس في الصخر . إن إشعاع وتألق الذكرى يتداخل أحياناً مع الأحلام والأخيلة في نسيج الأزمنة . الأزمنة التي تتحول إلى شيء آخر في قطاع مظلم ، هلامي ، شديد الزوغان . ولعل نقطة البدء تأتي من هذا التوحد الحادّ . الوقوف بعيداً عن الأشياء المُلامِسة التي ترغبها وأنت تكافح ، وهي مفصولة عنك ، كي تتحد معها ، لكم تبدو مفلتة كالماء بين الأصابع . الأثر أو اللمعان هو مايبقى في محيط السراب الخادع .

ياللحسرة !

تلك المرأة كانت تقول : كما الحكاية سأبقى أثراً في رحلتك . هو كان يجيب : بل ستكونين الضوء آن تحلك الظلمة . أنتِ الرحم الذي آوي إليه في عصور المهالك . وإذ كان يحاول كشط القشرة الصلبة التي تكّلست حول روحه كان يبوح لها بيقينه حول استحالة ديمومة أية علاقة بين البشر : نحن لسنا سوى ضحايا وهْم كسول يخدعنا بملاذ اسمه : الأبدية . وبروح العناد والمنافحة عن يٌقينياته المخلخلة ، كان يحاول البرهنة بأن الروح تغادر الجسم كي تتحرر من أزمنة رتابة الجسد ، وعجزه عن التجدد للوصول إلى مطال الروح المحبوسة . الروح المشعّة والمضطربة والتي لايكفيها جسد واحد معرّض للفناء .

ولقناعتها ، بعد أن اقتربت قليلاً من محارق رؤاه شبه الجحيمية كرجل مؤذى ، كانت تقول ردّاً على النزعة العدمية التي

تملكته كسرطان : أنت لاتعرف البشر سوى من موشور واحد . سأثبت لك أن حب رجل وامرأة يمكن أن يدخل في نطاق جاذبية الأبد .

قال لنفسه والقطار يتباطأ في اقترابه من محطة استراحة : منذ بداية البشرية ، مع أسطورة هبوط حواء في بساتين عدن وهبوط آدم على جبال آرارات ثم بداية لقائهما في حدائق التفاح العدنية ، وهذه العبارة تقال غبّ أول لقاء بين عاشقين في المساء . وفي الصباح تترجم إلى الحكمة العامية : كلام الليل يمحوه النهار .

***

هانحن نصعد الطريق الجبلية شرق البلدة . الوقت غروب وأنا وهو متحاذيان . عربة زوجي والطفلة في حضنه ، يتقدماننا . تحت الأصيل كانت أشجار الغابة ساكنة ، مسحة كآبة خريفية تغطي الأغصان وماتبقى من الأوراق .

بيننا صمت ومسافة . صوت بوران يغرغر بالضحك . رنين عذب يخرق قتامة المشهد . رجل حيادي يبدو كالحجر . ذراعاه وراء ظهره متشابكتان . لايرى الطبيعة ولايشعر بوجودي . يبدو كمسرنم يغوص في أحلام بعيدة . ثرثرت كلمات عن الطبيعة وعري الشجر في الخريف . من ساقية يجري فيها ماء ضحل ، تناول غصناً يابساً ، راح يكسره ويرمي نثاراته في الفضاء .

ـ ماذا تحبّ في الطبيعة ؟ سألت لأكسر جدار الصمت . كلمة «الهاوية» التي نطق بها نفّرتني . داهمتني رغبة مومضة أن نعود إلى البيت في اللحظة التي كنت أقترب منه لنحتكّ بالأذرع : لماذا أندفع إليه وهو يبتعد ؟

ـ أيتها البلهاء ضعي حداً لهذا التهافت . قالت المرأة الأخرى في داخلي .

على مسافة ثلاثين متراً تقريباً كانت عربة زوجي . بهدوء راح يدفع عجلاتها براحتيه ، وبوران تناغي بين فخذيه . هاهي ذي

تلتفت إلى الوراء رافعة ذراعيها لكأنها تهم بالطيران نحونا . بحركة تلقائية اندفع الرجل ليتلقاها في حضنه . مع كلمة عمّو ناجي وغرغرة الضحكة انتشلها من حضن والدها وضمها بحنان حارّ كأنها ابنته . انتابني إحساس حنون ، مشوب بمرارة وفقدان . نوع من حنقٍ خاطف عَبرَ في مدى ثوانٍ . شوق أعادني خطفاً إلى زمن الطفولة والمراهقة . مراهقتي الباكرة ، العنيفة ، التي أفقدتني عذريتي قبل الزواج فكانت السبب في زواجي المبكر .

وهو يلاعب بوران قاذفاً بها نحو الفضاء كأنها كرة أو دمية يتلقاها بين ذراعيه ، ركضْتُ نحوه : أرجوك ، لاتقذف بها ثانية . هذه الحركة تسبب ضعف القلب .

باستهجان ابتسم ساخراً . صرخ زوجي : أفّ ، يالعقول النساء الصغيرة كعقول النمل !

قلت باحتداد وأنا آخذ الطفلة : أنت دائماً هكذا . دعك من هذه الأحكام الخرقاء .

جرحه الردّ فامتعض . استدار بعربته منكفئاً نحو البيت .

كيف تقول امرأة لرجل : أنت تحتلُّني ؟

لا ليست الفكرة هكذا . نقيضها ربما كان الصحيح : أنا امرأة محتلة وحبك يحررني .

مع بداية الشهر الثالث بدأ الاضطراب . لو قلت أنني مشوشة ، فاقدة التركيز ، لما كان هذا كافياً لإيضاح حالتي . أشعر كأنني أسير عبر ضبابة كثيفة في دغل شائك ، مليء بالحفر وبرك المياه الآسنة والحشرات . ومع ذلك تفعمني روائح مسكرة تأتيني من تويجات أزهار ونباتات تفيض بالألق واليناعة . أدرك بأنني أصعد أدراج الضبابة كما في حلم . هذا الارتعاش الذي يهز كل خلية من خلاياي ينبئني بالسقوط فيما بعد . السقوط المتناثر حيث لاالتحام لهذه الذرات ، إلى الأبد .

وهكذا في تلك الأيام ، التي تشبه بداية انتشار رائحة غبار

الطلع في الهواء ، منذرة بربيع خصب ، بدأت أطوار جديدة تغزوني كشجرة لوز تزدهر بأزهارها الثلجية . صديقاتي شاهَدْنَ هذا التحول في لون الثياب المبهجة ، والمثيرة ، والجديدة التي بدأت أظهر فيها .

ـ ثمة فرح طفولي جديد يبدو في محياك يادميانة . لاحظت ذلك صديقتي وجارتي روزا .

ـ أنت تعرفين حبّي لبوران . هي التي تربطني بالحياة . لولاها أنا لاشيء . في عيد ملادها الثالث وعدتها أن أكون أماً أخرى .

أولئك النسوة من المعارف والصديقات ، كن ينظرنَ إلي كمخلوقة تعيسة ، مبتلاة برجل مُقعد وأنا في شرخ شبابي وفتوّتي . روزا وحدها كانت الحميمة إلى نفسي والتي تعرف الماضي المضطرب ، وجرحي النازف . لقد بُحت لها بعد أن تأكدت من نبلها ، وإخلاصها ، ومودتها العميقة ، بأن بوران ليست ابنة زوجي . هاأنذا أراوغ بمكر لأخفي حقيقة مشاعري أمام صديقة أشك في مدى استيعابها لهذا الاضطراب الجديد الذي يغزوني . قد لاتكون هذه المراوغة أكثر من غيمة دخانية يستتر وراءها خوفي أو شعوري بإثم قديم هاهو ذا يتناسل وينمو مرة أخرى . هل أنا امرأة منذورة للخطيئة في هذا العالم ؟ أم أنني ضحية أقدار ومصادفات لاقبل لي بردها والتحكم بمجراها ؟

ولكن من أين هبط مخلوق الأشباح والجنون هذا ! كيف اندفع هذا الهلع من صمته وأحاديثه وشروده الغامض ، وسكنني ؟ !

لكم هي مخيفة هذه السطوة السّرّية التي يشيدها في أعماقي . سطوة تضعني على حافة الهاوية في ليلٍ لاأعرف له فجراً .

في زمن النسيان بعد أن لجأنا إلى هذه البلدة النائية عن مسرح الفضيحة ، قبل أن يأتي هذا الغريب من بلاد الشرق الحزينة والمضرَّجة بالدم ، كنت أتمرغ في وحل هذا الزواج . زواج نصفه ستر فضيحة ، ونصفه الآخر استخدام شبه مرحاضي لرجل مشوّه ،

كريه . في ذلك الزمن ، زمن اليأس المطلق ، تمنيت لو أنني لم أولد . كانت رغبة الموت الكامنة تدفعني لأن أخرج عارية إلى الشوارع وأنا أعدو باتجاه الهاوية أو البحر كي أنهي هذه المهزلة .

هكذا أبدو الآن . امرأة وحيدة في هذا الشتاء القاسي . أفكر وأنا أمام النافذة والمطر يغسل الحجارة وذؤابات الشجر ، بهذا الوافد من أصقاع مجهولة . الغريب الذي بدأ يجتاحني كما إعصار يعصف بهشيم .

ترى ماذا يستطيع أن يقدم رجل مصدّع لامرأة أكثر تصدّعاً ؟

امرأة المطبخ وآلة الخياطة ومفرّخة الأطفال ، والهاربة من عارها .

الزوجة الوهمية لرجل يطؤها ليلاً كما يطأ خنزير أنثاه ، لالشيء سوى أنها في أوج مراهقتها استُبيحت فانهتك غشاء بكارتها ذات غروب على شاطئ بحر . إن ذكرى ذلك الحلم ـ الكابوس تبدو لي الآن كصاعقة تشق فجوة في صخرة هشة . آه ، ياللرعدة من ذلك الحدث الرائع والمفزع في آن . أحسست وخزة كوخزة نحلة أو إبرة حادة : لاتخافي ياحبيبتي . سنتزوج يوماً ويكون لنا بيت جميل وهادئ قرب البحر .

هكذا وشوش لي الرجل الذي سافر وهجرني إلى البلاد البعيدة .

في ذلك الزمن السحيق ، زمن المراهقة والألوان والروائح العطرة ، كنت مسحورة بأبهة البحر وجلال الغروب ونبض الدم في عروقي . شفافية زرقاء وأرجوانية تغطيني بدفئها وعذوبة الرائحة . كم أنا مبهورة وهو يطويني في ثناياه غاسلاً شعري بأصابعه ووجهه وزبده الأبيض ، منساباً من الرقبة إلى النهدين ، عابراً فوق بطني وسرّتي ، يتغلغل بقطرات حميمية بين فخذي كما سمكة في لجّ حميم . لكم تبدو الدغدغة لذيذة وشهوية وهي تكتسحني حتى مشارف الروح ، وأنا أنصهر بين ذراعيه وفخذه

وصدره ووحشية استغاثاته . أهو الجنون أم الموت أم الولادة ؟

تلك الصيحة النشوى إثر الطعنة الباغتة والمؤلمة لحربة البحر . آه ، آي . التلاشي والتناثر والغياب في أثير الزمن .

والآن هو ذا إله بحري آخر ، ترسله المجرات الغامضة ، يظهر على شواطئ عزلتي .

ولكن من أين تولد اللامبالاة وقسوة الحجر ؟

أقول بلا وجل لأكسر الحجر : أنا امرأة واهبة وسخية . أعبد الرجال الأقوياء . لقد كنتَ معي والآخر يلجني . أنت قدري المنقذ .

يقول هازئاً ، مذلاً صراحتي : أنت تفكرين بعضوك لا برأسك . هكذا أنتُنّ في لحظة الشبق . يقذف العبارة في وجهي ليقيم بيننا جداراً من العفة الكاذبة .

في النهاية وخاتمة المطاف ، سأروي لروزا مختصر حكايتنا بعد أن يختفي من حياتي فجأة كما ظهر . ستقول لي صديقتي ونحن نشرب القهوة على شاطئ البحر ، مدركة أساي ومدى إصابتي : الرجال هم الرجال ياعزيزتي دميانة ونحن في مراياهم لسنا أكثر من ضلع قاصر ووعاء شهوة . هم القضاة والجلادون ونحن أبداً في قوس الاتهام . واأسفاه أن تكون الأمور هكذا .

زمن الورد

المهزلة أو الفضيحة أو الموت ، كانت في حِمى تلك الأنثى الشقية ، أو في ظلماتها الداخلية ، ربما .

هي هنا على نحو آخر ، محمولة في هذا القطار ، داخل خلايا هذا الرجل الأكثر شقاء ، الرجل الذي نجا من موت محقق جراء مصادفة عمياء . تلك الأنثى تحيا في كنف أسرة . هي جذرها حتى ولو كان مجذوماً . ناجي العبدالله تحول إلى حجر مقذوف مهجور في براري الدنيا بعد أن استؤصل جذره ، واجتُثَّت أسرته من الوجود . عندما تضطرم النيران ، وتهتاج خلايا الدماغ والأعصاب ، يحلم جحيمه بيوم الثأر من القتلة الذين يعرفهم ولايعرفهم ، جراء تناوب الظلمة والضوء لحظة انبهاق الموت وامتداده اللامتناهي .

الموت ـ الجريمة .

هي ذي انبثاقة مفاجئة في هذا الغسق الأفريقي ، تزيح سحابة الثأر الآن . هبوب الروح الأخرى التي تتألق في هذا الهزيع الراحل . زمن الفتوّة والمراهقة الضائع . هناك في الأقاصي التي تشتعل بشميم الورد .

من تلك البراري كان يحمل إليها أضمومات الزهر الأبيض والأرجواني . ستقول ، فيما بعد ، من تلك التويجات جاءتني الأعراض الأولى . وهي تنسِّق وروده في المزهرية الزرقاء ، كانت

تستنشق غبار الطلع من المدقات . تشكيل المدقة المنتصبة وسط التويج كان يرعد الأعصاب بهيجان سحري ، لذيذ ، مدوخ .

لقد راقب ، بمكر صامت ، شغَفَها بورود البراري في أصائل النزهات عبر شعاب الجبل المطل على البحر .

وراء زجاج نافذة القطار ، تنحني تنورة بنفسجية تداعب طياتها ريح . تتسلل الريح لتغمر البياض الناصع . تلسع ماتحت الخصر وقد تعرّى من زهرة اللوتس . ورود تُجتث وتُجمع بين أصابع من لحم وشهوة . تنتصب ثم تنحني وهي تتقدم بين الدغل الكثّ وأنصال العشب العالي .

ثم فجأة تلك الصرخة .

يترك الزوج والطفلة ويُهرع . لابد أن أفعى لدغتها .

رآها جاثية على العشب وحولها زهورها البرية منتثرة .

ـ ماالذي جرى ؟

ضاحكة بمكر : لاشيء . شوكة وخزتني .

ـ وهذه الصرخة العالية ؟

ـ كي تأتي . قالت ذلك وعيناها تلمعان بوميض شهوي ، مفترس .

ـ تعال واجلس قربي .

ـ ولكنهما . . .

ـ انسَ ماوراءك .

انقباض مباغت . من حافة السفح بدا العالم المشرف على البحر ، متألقاً ، ومضاءً بشمس على شفير الأفق . في جوف هذا العالم بدأ الخوف يقرع طبوله منذراً بالحرب . كم بدت رحبة ، ومضيئة ، وهي ممددة بين صخرتين يغطي مداخلهما العشب . ملامسة فخذها العاري ، المطروح بتلقائية ، وإهمال ، كان كفيلاً بإشعال الحريق . في تلك اللحظة الجاهزة للانفجار ، كان الاقتراب

والتماس مع الجسد المشعّ بين العشب ، يستوي مع الهاوية .

قالت غبطتها المشرقة : أرغب أن أطير . وباحتفال ضراعة مدّت أصابعها وسحبته من معصمه ليجلس قربها ، بدت الحركة كما في مسرحية . وهي هناك ملقاة على ظهرها ، تجلّت كساحرة مجلّلة بالإغواء . راحت تثرثر حول الحرية والانطلاق ، وتحوّل الإنسان إلى زهرة أو فراشة أو طائر .

ـ أنت يوماً قلت شيئاً عن هذا الانخطاف . شيء عن خروج الروح من ملل الزمن وقيود الجسد والصعود نحو الطبقات العليا إلى فضاء لامحدود .

ـ أنا . لا . لاأذكر أنني قلت هذا .

ـ بلى . شيء قريب من ذلك ، الرعد أو الصاعقة أو المطر . الشيء الذي يظهر بغتة ثم يغيب لكنه يخطف الروح معه .

ـ الموت والبعث . هذا ماتقوله الأديان القديمة . ولكن ماالذي أوحى لك بهذه الترّهات الآن ؟

ـ قل لي هل بين أضلاعك قلب أم قنبلة موقوتة ؟

قَذَفت بالجملة باستثارة حنق واستفزاز . كان الفخّ مكشوفاً ومُهملاً فوق التراب الآن . لم يُثِرْ فيه جسّ النبض أكثر من هزّة رأس ونخرة أنف .

ـ من أين لك كل هذه الكراهية ؟ انظر إلى العالم كم هو . . قطع العبارة من فمها براحة كفّه . بالذراع اليمنى طوّقها . ضغط صدرها إلى صدره : هيا . لننهض . إنهما ينتظراننا .

كما جذور الشجرة بالأرض تغلغلت فيه . لو يُمحى الآخرون فلا يكون سواهما في هذا العراء المعشب .

سيتذكر في الأزمنة التي ستكتنفه فيها العزلة ، مابعد الرحيل إلى مدينة أخرى ، إبّان يجأر الذئب وحيداًفي الكهوف المطوّقة بالثلج والجوع ، آن تكون الأنثى التي اشتُهيت قد ضاعت في متاهات الزمن ، واللحظة المتألقة انطفأت في دفقة الخوف ومياه الأخلاق ،

كم كانت تلك المرأة متوهجة ، ومشتهاة تحت عبق زهور البراري العسلية . وكم كانا توّاقين إلى الطعنة التي تقصم الظهر ، وتدمي ، حيث يفنى الله والعالم في شرارة الجسدين .

في المقصورة المجاورة له ، بدا من خلال الهرج المسموع ، أن طفلاً مريضاً يُنازع وهو شبه غائب عن الوعي . أمه الحزينة تروي لجمع من الذين يستطلعون الخبر شيئاً عن مرض الطفل . إنه يسمع من شرفة القطار أصداء عن الحادث الطارئ . شظايا كلام الأم تنبئ بأن الطفل مصاب بخراب الكريات البيضاء ونقصان الأوكسجين في الدم . يبدو أنها لاتعرف جوهر المرض . الأطباء أشاروا عليها بالمناطق الجافة والهضاب العالية حيث الهواء النقي . هو لم يفقه شيئاً من هذا الهذيان والهرج الذي أحال المقصورة المجاورة إلى مأتم .

القطار يتمهل ، موحياً من خلال صفيره المتقطع ، بقدوم محطة جديدة سيتوقف فيها . في هذه اللحظة كان مسافرون يلغطون عن تقيؤ الطفل قيئاً ممزوجاً بهلام دم .

الآن بلغت الضوضاء أوجها . كان هو وآخرون من المسافرين خارج المقصورات عندما توقف القطار في المحطة .

انهدام كامل يشل خلاياه . رغبة وحيدة حوّمت في سماء رأسه المصدَّعة : لو ينام !

دلف إلى مطعم القطار هرباً من الجلبة . طلب سندويشاً وعلبة بيرة وتوسل إلى النادل حبة إسبرين . أتاه النادل بما طلب . قالت الروح والجسد المتعبان بعد تناول السندويش والإسبرين : نم غفوة على هذه الطاولة رجاء أيّها السيد المهدّم وبعدها ليكن الطوفان .

في حرم ظليل النوم واليقظة ، داخل ابتهالات النعاس ، نهض الزمن المنسي . أمواج مدن تحترق . أصوات استغاثات ، جثث جماعية في خنادق . نساء تُغتصب في المنازل . أسرته التي أُبيدت بالقنابل اليدوية في غرف النوم . دويّ من البرّ والبحر . غبار من

الغازات انتشر في الفضاء . وحش من الشرق الذي تشرق منه الشمس ، ينثر من عباءته المرقطة أزهاراً بيضاء فوق هضاب من الرمم والعظام والمقابر .

ـ للتاريخ هذه الهدايا التذكارية . قرأ العبارة التي أسقطها القمر فوق صفيحة من فولاذ الطائرات ، هوت مصادفة فوق المائدة التي تناول عليها السندويش مع حبة الإسبرين .

ـ لست مهزوماً أو هارباً . أنت شاهد موت بلاد لاقيامة لها .

تأتي امرأة في لفاع أرجواني يطوق رأسها وعنقها . تقول وهي تمد ذراعيها كشراع : خذني إلى بلاد خضراء في لون البحر وسكينة النسيان .

من أين انبثقت هذه الأهوال ؟ هذا الهلاك الذي غطى الأرض وحجب الشمس بغبار الحقد والغباء والقوة الوحشية ، أين كان يكمن ؟ ولماذا لم يتبدَّ في بربريته البشعة على هذا النحو في أحقاب مضت ؟

صعباً يبدو الجواب على الأسئلة في البرهة الراهنة . برهة العمى والشلل والانهيار الشامل .

بقايا ورود ذابلة في أصيص علاها الغبار في صالون المرأة الصغير . هي هناك وحيدة على الشرفة ، مغلّفة بزمانها الوردي ، وهو هنا مغلَّف بزمانه الدموي ، وثمة في الزاوية زوج مشلول يهرهر لغطاً حول تفاقم الأسعار ، وتهريب الأموال ، وانقطاع التيار الكهربائي المتواصل ، وانتشار تجارة السوق السوداء ، والرشوة ، والدعارة وانهيار الأخلاق .

قبل لحظات كانت تبدد الزمن بحياكة جوربين ورديين لبوران . هو كان يحاول إيقاف الزمن فوق أناملها البيضاء الناعمة . الأنامل التي ستمتد ذات غسق لتمسح عن صدغه وعثاء السفر والحنين إلى الماضي المهلك .

ـ من أجلي ابقَ . المرأة المعتوهة ، معطوبة الروح وعاشقة

الرجال تقول .

سريان ليلي فوق أرصفة مدينة غريبة ، تحت سماء تهمي رذاذاً ناعماً . عذوبة الأشياء في صمتها المعزول . الحجارة والشجر والجدران ولمعان الشوارع . دويّ غامض للمدينة والبحر والأرض . لسع الهواء البارد وصدى الخطوات الهاربة . الزمن المتألق الذي يرحل كهذا السحاب السماوي ، وأنت تعدو وراءه . تصرخ في وجهه : من أجلي ابق . لاترحل .

آن تسقط قطرة مطر ثم قطرات فوق صدغ الرجل الهارب من الملل إلى الشوارع ، يتلاشى غبار الضجر .

أنت هنا الآن تستلقي في سرير الوقت الآمن بعيداً عن الأنواء وصخب الموت . لماذا لاتكون كالحجر أو الشجر أو الحلزون ؟

أليس مريحاً أن يحيا الإنسان حلزوناً أو سلحفاة داخل قوقعة لايخرج منها سوى في مواسم الغذاء والشمس ؟

دفقة الضوء المبهر ، التي تنبثق بغتة من مرآة تعكس وجه امرأة ، عينان مومضتان ببرق مجروح ، تنير ظلام القوقعة .

هو كان ميتاً من الداخل ، كما أوحى . الآن وهما مدثران بالعشب ورياح الجبل ، تسمع وتحسّ نبضه الحي فوق صدرها .

ترى هل روى شيئاً ما عن الزمن المُرمى وراءه في لحظة غفلة ؟ أم أن المرأة ترجمت بعض العبارات العامّة التي تشي بكارثة ما ؟ أم تراها كشفت صورة الأسرة المغدورة المعلقة على صدره ؟ بدت مغمورة بسعادة مفرطة في تفاؤلها . إشراقة وجهها الصَّبوح ، تماهى مع وجه طفل نُهبت ألعابه أو أُحرقت في حرب ، وهاهي ذي تُستعاد الآن هابطة عليه مع بابا نويل ذات فجر ميلادي .

عندما سألها في ذلك الضحى عن وقع الندم ، قالت شيئاً عن الطيران المغبط فوق سحب الزهر . كانت الريح المنعشة القادمة من سهول البحر ، تعبر فوق صدرها المغمور بالعشب ، مداعبة ذؤابات شعرها الطويل ، الأسود .

بدت وهي نصف عارية ، مستسلمة لدبيب هذا الاغتلام المهيِّج لتويجات الدم ، لكأنها تستعيد طبيعتها الأولى ، طبيعة ماقبل الشرائع ، آن كان الجسد والروح يرتقيان معاً أدراج الفضاء ، لحظة إيقاع الرقص لولوج بوابة الجحيم . هذا ماكان يشي به ذلك الوجه المورّد ، والمشرق وهو يستقبل في الأحشاء قطرات المطر الحارّة .

ـ وراء قشرة الدم والرماد ثمة حياة خضراء .

البار الذي دخله لأول مرة في ذلك المساء يشبه كهفاً سحرياً .

هبط الدرج الملتوي تحت ظلال أضواء ملونة قادته إلى قاعة دائرية جدرانها من خشب الصنوبر المحروق . من السقف تدلت مصابيح قديمة ، وفي الزوايا والواجهات ، جثمت زجاجات نبيذ مغلفة بالقش الأبيض ، قربها مخروطات من اليقطين اليابس ، وسلال قصب ، ومحاريث زراعية قديمة ، وجرار من فخار صلصالها متوّج بشقائق النعمان .

لابأس . زاوية مريحة للأعصاب . استرخِ قليلاً هنا أيها السيد ولتؤجَّلِ القيامةُ إلى يوم آخر .

انتحى زاوية بين الظلال والأضواء . بعيداً عن الصخب وضباب دخان السجائر المموّج في فضاء البار .

قبل أن ينحني النادل القادم إليه ، على مسافة متر من طاولته ، طلب كأساً من البراندي . موسيقى البار الهادئة تطلق الحنين باتجاه شيء عذب مفقود ، امرأة أو وطن أو بيت مهجور . الآن هو خارج الحنين إلى أي شيء من هذه الافتراضات . شيء واحد كان يكافح لطرده من سمائه : طائر الموت .

وهو يرشف الجرعة الأولى من البراندي . شعر بحرقة منعشة ذكّرته بالقبلة الأولى وهو في سن الرابعة عشرة . غلالة من الورد محمولة على جناح سحابة عمرها ستة عشر عاماً هبطت عليه الآن في هذا البار المغربي .

حكاية قديمة كان لها رائحة هذه الموسيقى ، ورائحة ورود

دميانة ، ورائحة الأرض المعشبة في أعقاب مطر .

لكنها الآن ، بعد الدمار وانهيار كل أمل في شروق شمس الشرق ، ماعادت شيئاً . رائحتها كرائحة الرماد .

مع تقدم المساء يزدحم البار . وجوه غريبة تدخل . ضوضاء الأصوات تتناثر على سطوح الديكورات ، وداخل أمواج الموسيقى .

بخار البراندي ، وهو يتقدم كاوياً الأعصاب والخلايا ، يسدل ستارة شفافة ، مضيئة وخادعة ، فوق مسرح الذاكرة .

من خلال ثقوب الستارة يتسرب الندى وقطرات المطر . تحت هذا الوميض المنكسر لسياق الأحداث ، واهتزاز الشاشة ، يلوح العطب المؤلم . هناك .

مدينة مهملة ، وسط الصحراء ، قديمة وباهتة ، تشبه مدن ألف ليلة وليلة في حكايا شهرزاد . بيوت متراصة ، بعضها مشيد من صلصال رمادي ، وبعضها من الاسمنت .

روائح أسواقها غير منعشة . تفوح منها روائح جلود وبيض فاسد وأجبان وبهارات نفاذة وأقمشة ملونة وحقائب وأحذية وصنادل مدلاّة كطيور مسلوخة .

متاجر وحوانيت متراصّة تراصّ بيوت السكن بأزقتها الموحلة . باعة ومتسكعون ونسوة مؤتزرات بسواد فاحم . ريفيون قادمون من أقاصي القرى يُقْعون أمام منتوجاتهم .

ضوضاء وعربات بيع وقباب مآذن بيضاء تؤذن بالصلاة . اللوحة التي تلي ، يختلط مشهدها الطفولي الأول بما حدث إبان تقوّض المدينة وتسويتها بوجه الصحراء .

بيت العائلة يلوح كأنما يطير فوق سحابة من اللهب والدخان والدماء . داخل السحابة يتراءى شيخ معمم بعمامة بيضاء ولحية بين البياض والرماد . بيده كتاب مقدس يتلو منه . تحاذيه امرأة ترتدي ثوباً منزلياً نيلي اللون موشى بأزهار سوسن . إنها تطوّق ابنتين وطفلاً . ثمة هلع لايوصف جرّاء الدويّ الذي يقترب من

الخارج والمزلزل لأساس البيت .

رمانة أولى . رمانة ثانية . تليها أمطار ورعود تندفع من النوافذ ، وبغتة يتهشم الباب ويهوي . صرخات وراء فوهات بنادق رشاشة تطلق أزهار النار . ثم لاشيء .

من زاويته شبه المظلمة تراءت له امرأة تتقدم نحوه . امرأة بدت في قامتها وفستانها المضموم كأنها أضمومة بنفسج اصطناعي مستورد من جنوب شرقي آسيا . وهي تواجهه بابتسامة استجداء سألته إن كانت تزعجه لو جلست معه . لم تنتظر الجواب . غبّ جلوسها مدّت أصابعها إلى علبة الدخان : هل تسمح بسيجارة ؟ ولأنه ماكان هنا لحظة انشطار الذاكرة بين المدينة وبينها ، بدا لامبالياً بإيقاع حركاتها .

ـ هل تشعل لي ؟

لابد أنها استخدمت كلمة ملتبسة : أتشعلني ! تاركة السؤال يتدحرج كطعم شصّ في وجه الغريب .

وهي تواصل لجاجتها في فضاء البار ، وبين صخب الأصوات ، تطلب كأساً من الويسكي .

هذه هي عادتهن في ابتزاز الجُدد . يقول هاجساً ورائحة عطرها الرخيص يفج وهي تقترب من صفحة وجهه لتمصّ شحمة الأذن .

ـ أنت جديد هنا ياحبيبي ولكل جديد لذّة .

تشعّ لوحة على شكل غمائم راكضة .

نساء هلِعات وأطفال وعجائز ، متوّجون بلهب وغبار النابالم والغازات الكيميائية ، يتدحرجون فوق سهب من أرض غضارية خالية من الأعشاب . فوقهم ، في سماء ملتهبة بلون برتقالي ، طيور مهاجرة من الدراج والإوز والبط والقطا واللقالق البيضاء . وراء النساء والأطفال والعجائز قطعان من المواشي والإبل والدجاج والأرانب ، تهيم على وجه الصحراء بعيداً عن الدويّ وانفجارات

المدينة التي تتقوض وتحترق .

حينما تسأله الآسيوية عن اسمه يقول : فيديريكو .

ينبثق الاسم كما يُتناول حجر من شاطئ محصب ويُرمى به إلى البحر .

ـ إيطالي أم مكسيكي ؟

ـ أسباني .

ـ من مدريد ؟ أنا أعرف مدريد جيداً .

ـ من غرناطة .

ـ أوه . غرانادا . كم هي جميلة ومثيرة . اسمي بولينا .

حوار مفكك تنتسج فواصله ببخار البراندي مع كؤوس الويسكي الرخيص التي يقدمها السنيور فيديريكو للقديسة بولينا المستوردة من جزر الفيلبين السحرية .

الأسئلة التي تلقيها الآسيوية على الرجل الملتحمة الآن به فخذاً لفخذ ، لاتلقى أجوبة شافية . وهي تغبّ من كأسها لتنهيه بسرعة بغية طلب آخر ، تثرثر عن أمور تافهة حول حياتها وعملها وزميلاتها واستغلال الرجل المستورد لهن . بمرارة تروي عن الرجال الذين يأخذونها في أواخر الليل ويعاملونها كمومس رخيصة بشكل وحشي واغتصابي ، وقليلاً مايدفعون .

هذا الهدير يتصادى مع الضوضاء ولمعان الكحول في الرأس وخيوط الدخان ، محاذياً هذه اللامبالاة الباردة لرجل ساهِمٍ يبدو فائضاً عن الزمن ، والاحتدام اللوني للأشياء .

السواد حالة العمى المظلمة للكون التي غشيت عينيه وهو في سيارة الجيب الزيتية ، تحوّلت فيما بعد إلى شاشة مثقوبة يُرى العالم من خلالها . آن نُزعت العصابة عن عينيه وقُذف في قبو أو عراء ليلي شديد البرودة ، أدرك الخطأ الفادح لخروجه من رحم أمه ونجاته من المذبحة .

ثلاثة دهاليز مظلمة : الرحم فالقبو فالقبر . خيّل إليه أنه همس بالعبارة في أذن السنيورة بولينا ، التي جفلت .

ـ ماذا تقول ؟

ضحك البراندي عالياً برنين غريب ، مفاجئ في خرافته ، فارتجّ البار . ذُعِرت المخلوقة السحرية . لكن الأسى والدهشة نفرا من تضاريس وجهها البيضوي ، الأبله . وجهه هو الآخر ، مرتسماً في مرآة مواجهة ، لاح ينضح زراية ، وقسوة . كان الآن مُرمى في الجانب الآخر من الانتقام حين حاولت بتمسّح القطة المنهورة سؤاله عما إذا كان مؤذى منها . عصمته مرارة القلب وزوغان الدم . الأعصاب التي التهبت ببخار البراندي توقاً إلى الثأر ، نزعت إلى تهشيم الكأس براحة كفّه ، وتمريغ وجهه ووجه المرأة الجاثية قربه بنثار الدم . وهو يزيح ظلال المشهد ، بينما الآسيوية تتموج تحت عنف الضربة التي داهمتها كما في كابوس ، قال شيئاً لم يقله :

«القاضي والحرس الأهلي
يطلعون من حقول الزيتون ،
والدم المنثال ينوح
بأغنية أفعى خافتة
أيّها السادة ، جنود الحرس الأهلي ،
هاهي ذي الحكاية القديمة
تُستعاد»

* * *

الأعراض الأولى للفيروس أخذت تظهر على شكل وساوس وأحلام وتصورات يقظة . عالم الطين والغبار والثرثرة الفارغة ، بدأ يهتز . كنت غارقة في قوالب أيامي المتواترة . المنزل ، المطبخ ، السوق ، الطفلة ، الزوج ، الخياطة ، السهرات الرسمية المجلّلة بالنفاق والأكاذيب ، ثم الحرمان الجنسي . على مدى أعوام ، في

أعقاب هجرتنا من مدينة مليلة إلى هذه البلدة المرمية كصدفة على شاطئ بحر ، تأقلمت مع حياتي العادية . حياة صارت قدري كما لو أنني صُبِبْتُ داخل قالب من جِصّ . الآن أشعر بحركة تشقق لقوالب الزمن القديم . من الشقوق تتسرب رياح عليلة ، دافئة ، تصعد بالروح نحو سماوات وردية ، بعيداً عن الروائح الكريهة وزنخ الأيام الواحدة .

حلمي الأول ، بعد زمن طويل من انكسار سفينة حياتي ، وتحولها إلى حطام وصدأ ، أفزعني .

وقت بين الشفق والفجر . هو ذا يتقدم من غرفته شبه عارٍ . في صدره وردة حمراء . يقف على العتبة بوجه جهم ، قاسٍ . بدت لي الوردة ترتعش لكأن تويجاتها تودّ النطق . تأتيني أصوات وحركات قادمة من أماكن قصيّة توحي باحتفال عرس . نوع من الهرج البدائي يعلو قادماً من كهوف ومغاور لاتُرى . فزعة ، ومنتشية من هذه الوجوه المختلطة بين البشر والجن الذين يهزجون فيما يشبه الظليل الخافت لموكب من البشر والخيول المتوَّجة أعرافُها بأكاليل الزهر .

أرى زوجي يخرج من النافذة وقد شفي من شلله . يقول لي : اشتقْتُ للمشي في الشوارع . تعالي نتعانق ياوردتي .

بغتة تطير وردة من صدر الرجل الغريب وتندسّ ، متحولة إلى طائر ملون ، بين ثديي . عارية ، وأنا أنهض من الفراش ، رفعت ذراعي ، مفتونة بهذا الألق الوردي ، صرخت : تعال . تقدم أكثر . طويلاً انتظرتك في الزمن الماضي . ماكان قادراً على الحركة . هو الآن شبيه بزوجي . الشلل في قدميه ولايستطيع التقدم . وقلت : لماذا أنت هكذا . حدثني عنك . ماذا في صدرك ؟

وسمعته ، وهو يدخل في شفافية الظلام ، كأنما يتحشرج ويشير إلى الهاوية التي انفغرت الآن فولجها موكب البشر والجان الذين يهزجون ويولولون في جنائز .

وقلت : أنا بحاجة إليك . قل لي من أنت ؟ ولماذا لاتخرج من هذا العتم المهلك ؟

ماكان قادراً على الكلام . مُربَك . في وجهه المغضّن انكسار وذل واستخذاء . عيناه تشبهان حجرين وهو مقيد غير قادر على اجتياز عتبة الغرفة . ورأيت الوردة وهي تخرج من صدري . كانت تقطر دماً . وهَمَتْ سحابة على شكل بجعة بيضاء حملته ومضت . وهمست دون أن يخرج صوتي : ابق ولاترحل . بوران وأنا نحتاجك . لكنه ذاب في السحابة .

في الصباح سألني زوجي لماذا كنت أهذي وأنا أبكي على فقدان الورد . قلت له بأنني حلمت بلصوص يسرقون البيت ويخطفون بوران .

* * *

في المحطة الجديدة توقف القطار . الطفل المريض يدخل الغيبوبة وهو مسجى في حضن الأم ، وقد بَدت مستسلمة لحزنها وقدرها . نزلاء المقصورة يحاولون التسرية والمشاركة في الحزن . الأم صامتة كالحجر تضمّ طفلها وتكتم حزنها . آخرون دخلوا حقول الإنهاك والنعاس فوق الأرائك الجلدية السوداء .

الذين هبطوا من القطار نحو بلداتهم وقراهم ، تنفسوا الصعداء . خرجوا من أنفاق الملل والكآبة ، والذين بقوا هاهم يتابعون هذه الحكاية الميلودرامية التي ترتجّ وتتناثر ، ارتجاج عربات القطار الموشك على الإقلاع .

وكما يروي الرجل المدعو ناجي العبدالله حكايته ليبدّد الملل والمسافة والزمن ، كان المسافرون يروون حكاياتهم بشكل صامت في هذا السفر الطويل الممض .

بعد أن سكن صداعه وغادر المطعم ، اتكأ في زاوية مقعده يدخن ويقرأ ، ساتراً بالكتاب المشهد شبه المأتمي لحالة الطفل والأم ، وحالة الضجر والنعاس التي حلّت بسكان المقصورة وهم

يترنحون تحت هبوطهم العضوي .

لكن الذي يثب ويتشظى وراء هذا المشهد من شرارات يصعب التحكم بمساراتها ، هو هذه الاشعاعات التي تنطلق من شمس أبدية الموار ، اتخذت من رأسه مركزاً وراحت تنير الكون المحيط به على شكل حرائق .

هل حدث ذلك جراء الصدمات الكهربائية التي تناوبت على أعضائه ؟ أم هي انعكاس ارتكاسي لأصوات المذبوحين وهم يستحمون بدمائهم عشية المذبحة ؟ أم أنها محض أوهام ثأرية نابعة من مجرات حقد موروث ضد البشاعة والطغيان القديم ـ المستجد ؟

وهما متضامان ، فيما بعد ، بحميمية الروح والجسد ، ستقول تلك المرأة همساً : الحياة الضائعة هي تلك التي لاتتسع إلا للبغضاء . حبنا هو البحر ورغبة الثأر هي الصحراء المحرقة .

قالت أو ستقول إبّان كان يحاول إيقاف نبض الأشعة المحرقة في أوقات الهدنة ، لحظة كانت خميرة النار الثأرية تنمو في أعماقه كما جذر فطر مختزن في أعماق التربة ينتظر مطراً .

كانت الرغبة الكامنة في مايمكن تسميته ، وهو مايؤرق روحه : تطهير الدم بالدم . موازية لهذا الحريق الذي بدأت رائحته تنتشر في فضاء البيت . ولأنه منفي وأعزل وبلا أمل ، تحت مظلة الجحيم الهمجي الذي اجتاح هذه الخليقة في لحظة غفلة من الغباء والسطوة البربرية ، قالت له تلك المرأة : أنت ماضٍ إلى حتفك دونما جدوى إذا لم تخرج من هذا النفق المظلم .

بدت فكرة النقاء الذاتي ، والخلاص الفردي ، في البلاد التي تستحم بجراثيم موت الضمير ، وانهيار القيم وسقوط القوانين المدنية ، تلجأ إلى حيزّ ضيق في خلجان الأمل . الأمل الذي تراءى في تلك الأزمنة الفوضوية الشبيهة بجبل ينهار ، شعاعاً نحيلاً في مدى أفق غير منظور ، ولّدته الخلية الحيّة ، والنقية ، التي ترفض

الفناء .

تحت سحابة ذلك الوقت الملعون ، هو ذا يصطدم بهذه المرأة . امرأة الورد التي قُطفت غير يانعة عن شجرة أمّها ، كما قُطفت أسرته عشية تلك الليلة الدامية .

ستقول له يوماً ، وهو عازف عن الخيانة والوقوع في أشراك حبّها المنتشرة حوله ، رغم استهوائه ورغبته الجامحة للانصهار فيها ، بأن الزمن كفيل بتضميد الجراح ، وعلينا أن نعتاد النسيان . هو الآن يُواجه بالمقايضة أو التعويض في حقل من المواطأة بين حالتين كلتاهما توصلان إلى حافة الهلاك .

تحت ندى الدموع ، واختلاجات زمن أعمى مدثر بعواطف جموحة ، تروي حادثة زواجها ، بعد أن افتضّها ابن عمّها أخو زوجها ، وهي في سن الخامسة عشرة ، ثم هاجر للدراسة في أسبانيا . وستراً للفضيحة ستغطي العائلة حَمَلها بالزواج من أخيه الذي يكبرها بعشرين عاماً ليرحلا إلى الأبد من مليلة : مدينة الفضيحة .

هذا الزوج ، تقول عنه ، كان يذكِّرُها أبداً بالحادث ـ الفضيحة لحظة كانت تتوانى عن خدمته ، وطاعته كمولاة أو أَمَةٍ مسخَّرة للعناية به وتقديم آيات الولاء المطلق له .

في أوقات نوم زوجها أو خروجه بعربته ليتنزه في الحديقة العامة أو على شط البحر ، كان شوقها واندفاعها يصلان تخوم الضراعة . تزيح الأخلاق والمواضعات والتحريمات : أينبغي أن أركع وأزحف إليك ؟ قل لي هل تزدريني كامرأة مبتذلة وخائنة ؟

في تلك الأغساق الشفافة كنسيج شمس على حافة المغيب ، كانت ترتدي فستاناً موشى بورود البنفسج . أرومتا نهديها العقيقيتان تشعّان كما ماستين نتأتا من رملٍ بحري غسل للتوّ بموجة مزبدة . وهي على الديوان المقابل له ، وهو غارق في بخار دم موتاه واشتهائها ، تروي عن الحب الذي يجتاح امرأة في لحظة

عمياء . الأقدار المهلكة التي تهبط في الظلمات . صدمة الخطيئة المجللة بالبهاء والشوق إلى زمن آخر غير هذا الزمن . زمن العذوبة والحلم والطفولة والطيران . تتركز أشعة عينيها ، ووجهها النضر ونهداها وساقاها المنفرجتان وقد انحسر عنهما ثوب البنفسج ، على الرجل المطوّق بالخيوط العنكبوتية والإشعاعات الضارية : لماذا لاتراني ؟ لقد حلمت بك قبل أن تدخل هذا البيت . ربما كنت عمياء . أنت الآن نوري . أخرجني من هذا العتم . لنرحل من هذا الجحيم ولنبن معاً هيكل خلق جديد .

أية لعنة شيطانية أن يحدث مثل هذا الوضع في أوقات الشقاء ! هذا الشرّ الجميل والفوضى الفيزيائية للجسد وهو يتأين تحت صدمة الانصعاق وموجات الجنون !

في أعماق جيشاناته كان السؤال الذي لاجواب له : لماذا يشرق فجر الحب في ظلمة الثأر آن تكون مسام الروح مسدودة بغازات الموت ؟

هو ذا رجل وامرأة ، مدمَّران في وقت وحشي ينضح بالعهر والوحل وسفك الدماء ، لايستطيعان تشييد أيكة للحب .

ومع أن الروح الأخرى فيه ، روح الزمن المتألق التي هُشمت وانطفأت مصابيحها ، كانت تحاول النهوض من مدافنها صارخة بكل طاقتها : لكم أرغب أن نكون معاً كالشجر والأرض . لكن صرخة أخرى كانت تدوي من وادٍ آخر : نحن هالكان بقرار شيطاني . أنتِ وأنا وزوجك عالقون في شبكة عنكبوت سامّ . هل تعرفين شيئاً عن خراب الروح ياعزيزتي ؟ الآن نحيا في رحاب مجد هذا الخراب الجليل .

من نافذة القطار ، وهو ملقى فوق الأريكة بين ظليل النوم واليقظة ، ستبدع المخيلة مشهداً مؤثراً لأشعة عيون تلمع بالدمع والتوق والشهوة واستعصاءات الجسد .

ـ النساء كالورود لكل وردة لونها وعبيرها . سخية أنا كوردة

ندية تحت فجر . هذا الجسد ـ البحر لك .

وكما ينشقّ فجر بنفسجي ، ثم أرجواني ، ثم أبيض ، هكذا انشق فجر فستانها بأصابع حيوان مرجاني . يسطع الصدر ليتدفق النهدان الحبيسان مبتهلين . يترامى أنين ضارع : إنني لك . خذني الآن !

هل هو الذعر أم الهيجان أم الجنون هذا الذي واشجهما كما طفل وأم على بساط الغرفة ؟ كيف تضامّا وتعانقا والتهبا برائحة وشميم ورد الجسد ؟ وكيف تهشم الزمان الوغد ليزهرَ الزمان البرتقالي في فسحة بهية من فضاء الهيكل الخرع ، ودخان الحرائق ، والقتل بالأسيد ، ودمار المدن المأهولة ، وتشييد تماثيل البرونز لآلهة من صلصال ؟

هل حدث شيء خارق يُزعج الآلهة ، وأسرار الدين ، والوصايا العشر ، في ذلك الغروب الخائن ؟

أوه . يالهول الصدمة !

لو اقتحم ذلك الزوج البائس الغرفة وعاين المشهد فضبطهما في حقل الخيانة ، هل كان سيدرك أن الشجرة خرعة من جذورها الأساسية ؟ جذر الأخ الذي فضّ البكارة بشبق عابر ، وجذر المدينة والعائلة المُبادتين ، وجذر هذا التتويج الثأري والتعويضي . جذور ثلاثة تفرعت في أعماق الأرض من شجرة أفعوانية ثمرها مسموم ، نسغها على مدى قرون من الزمن سيظل يتغذى من أكباد هذه المخلوقات التي سقطت فريسة فخ أطبق عليها في ظلمة غابة .

زمن العار

يعبر القطار سهلاً يشقه نهر على شكل مسيل ، على جانبيه ترامت حقول البرتقال والليمون والموز . من المقصورة المجاورة ، حيث الطفل يدخل طور احتضاره في حضن الأم ، تتناهى ضوضاء وأصوات مندمجة مع ارتجاج العجلات .

متى ينتهي هذا الرحيل نحو المدن الغريبة ؟

في فجر الشباب ، قبل انهمارات أزمنة الموت واضطراب الروح وفساد الأمكنة واغتيال البراءة ، كان الشوق إلى البلاد البعيدة والغامضة ، طائرَ الحلم .

ارتسامات بألوان تشكيلية ، عابقة بالروائح ، وانجذابات الروح والكشف السري لنبضات المكان . صور ولوحات ومغامرات كونية ، يشكلها خيال السفر المجنون ، والتوق للخروج من الرحم الأول ذي الرائحة الصديدية .

التجدد ، والتغيّر ، واكتشاف البشر ـ الآلهة ـ الشياطين . أن تكون شيئاً آخر في مكان وزمان آخر . أن تخرج من سلطة الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، فيكون إلَهُكَ فيك ، وصاياه تنبع من دمك . أن توغل في الشرّ حتى أقصاه وفي الخير حتى أقصاه ، ثم تدخل مطهرك الخاصّ لتخرج منه بعد مليون عام ملاكاً أو شيطاناً أو نصف ملاك ونصف شيطان .

ولكن من الذي ناول هذا الصياد القاتل القوس والسهم وقال

له : ارشق هذا الطائر في صدره وانثر دمه في الفضاء !

هو الآن في تيه هذا الرحيل المضني ، في وقت لاشوق فيه ، ولاأنوار ، ولاروائح ، سوى هذا الدويّ المثير للأعصاب ، الشبيه بأصداء الزيزان في ظهيرات الصيف الحارقة . دخول وخروج لبشر بلا ملامح . ضوضاء وروائح حموضة وإعياءات . ضجر وتشتيت للذاكرة . صرير متواتر لقطار يعبر السهب والمنحدرات ، وهو المُلقى فيه لايدري ولايعرف في أية مدينة سيُرمى من جديد .

كيف يتحول الإنسان إلى كرة أو بيدق شطرنج أو نفاية ؟ فيما مضى كانت الغرابة تتبدى حول بدايات اعتكار بحيرات الروح . وفي أزمنة ماقبل هبوط الجحافل البربرية وسيطرتها على المدن والثغور ورصدها لأحلام اليقظة ، كانت شعاعات النفوس تخطُ على الأفق أملاً يشبه طائر البجع الأبيض ، وهو يزهو بثقة على سطح تلك البحيرات .

ماكان يُرى ، في برهة هدوء الأمواج وغياب العواصف ، أن تلك المرأة ماضية في اندفاعها إليه بقوة طلقة لابد أن تصيب هدفها . ومع أنه كان يكابد لإزاحتها عن درب الخطأ : مأأنا سوى وهم عابر أو حلم خادع . إلا أنها كانت تحتمي بقناعات يائسة ، وتوهجات مجتاحة ، ولّدها الأذى وضباب العزلة في بلدة صغيرة ترين عليها الكآبة والضجر وتناسل الأيام الواحدة ، وهذا الايقاع الرتيب للغباء والثرثرة الفارغة .

بإصرار لاهف كانت تجاهد لإخراجه من اضطرابه المحموم ، ومن المقت الضاري الذي تشكل في أعماقه كقشرة من اللحاء الصلب الممتنع على النفاذ أو الاختراق .

ـ أنا في الضوء وأنت في الظلمة . هل سألت نفسك ماذا يعني حب امرأة لرجل ؟

ـ حبّ في الزمن الكلبي . أي تعويض متواطئ !

ماكان يصدّع تلك المقاومة في جدار القلعة ، ويصيب اللحاء

بالتشقق ، وميضُ ذلك الوجه النضر كأرجوان الربيع . العينان المشعتان ، الضارعتان ، كما شمس في رأد الضحى فوق ندى الأعشاب . آن رفعت طبقة صوتها وراحت تتحدث داخل حالة من التهجد والشوق المفتقد عن الرغبة الحارّة الكامنة . عن الأماسي المهجورة ، والتوق الحميم للجسد والحرارة التي تطلق طيور الروح في فصول الخصب . عن طاقتها النقية وسخاء عطائها المختزن في ذرات خلاياها ، تلك الطاقة والسخاء المدخران ، والتي لم ينل اغتصابها أو زواجها سوى شرارات من شعلتهما المتأججة . وهي تروي ذلك بحرارة ويقين ، كانت تقدم شهادة صادقة ومتألقة في محكمة الجسد .

ماكانت ، وهي تدلي بشهادتها في غرفته أمام النافذة المطلة على البحر ، تستجدي حباً . الجسد والروح معاً كانا يصرخان احتجاجاً على سطوة الزمن الذي اجتاحها وهي في ألق فتوّتها ونضارتها المزدهرة . كان ذلك نوعاً من الاعتراف ومجابهة القسوة لحالة اغتصاب بدت عاتية في بربريتها الشهوية .

عندما تقدم نحوها ، وهو مغمور بالمرارة والأسى ، مادّاً كفيه نحو شعرها ثم وجهها ، داخل إحساس دافىء بالمواساة ، ارتعشت أعصاب الأصابع بوخزة تأنيب . حركة ارتدادية أو فعل منعكس شرطي ، جمعهما وجهاً لوجه وعينين دامعتين وجسدين ، أحدهما شبه مخصي بينما الآخر مؤتلق بالأشعة والدم .

سلام حزين ، كما الضباب في غروب خريفي ، هبط على المدن القتيلة ، دثّرها بأكفانه الرمادية ، وقال للجثث التي رُدمت في المدافن الجماعية : نامي أيتها الرمم المغدورة بهدوء . السواعد الآن مشلولة لا تطال مخازن الأسلحة ولكل قيامة ميعادها القادم .

ـ اخترقْتُ الحلال والحرام لأصل إليك . في قواميسهم أنا أستحق الرجم لأنني أخون ؟ هل تعي ذلك ؟

حزن قادم مع أجيج البحر ، يقبل كنواح طيور فقدت فراخها

في غمرة عاصفة . رجل بلا عواطف هاجر الحب من سماء روحه . رجل مكسور وهو في ريعان فتوّته ، لاهو حي فيُرجى ولاميت فيُنسى .

كم بدت منكسرة ، تحت موجات ألم لاحدود له . زفير روحها وهي مضمومة ، ومنكفئة فيه وحوله ، يكاد يشرخ القلب ويخترق الأضلاع . وكما احتضار طفل راح نشيجها الصامت يمزق الفراغ ويصدّع الجدران . نواح شجي لطائر جريح هوى فوق الثلج . وهو يمسح دموعها بشفتيه الباردتين ، مختَرَقاً بملايين البروق ، والمِدى المسنونة ، وانفجارات القنابل ، كان مُرمى في اليأس المطلق والجذام النفسي ، وفقدان الاتجاه .

الريح العاتية التي كانت تعصف في الخارج قالت : هاأنتما المستضعفان والمتوحدان بلا سلاح في ساحة رمي .

ـ كلانا يلاشي الآخر . نحن زبد موجتين يصطدم بحواف شط صخري . هجس للرأس الملتم بين كفيه ووجهه .

ـ قسوتك تسحق جبلاً . قالت وهي تشهق فوق الأضلاع .

ـ قسوتي أم قسوتهم ؟

ـ لابد أنني حشرة في عينيك أو مومس .

ـ بل أنت امرأة قديسة في عصور العار .

الاحساس بالمهانة ، أو الذلّ ، أو العار ، الذي يداهمها الآن ، وهي عزلاء سوى من رهافة عواطفها ، داهمه وهو مختبئ كجرذ في ظلام منور البيت عشية المذبحة ، بينما هم في الصالون وغرفة النوم غارقون في سبات دمائهم . أشلاؤهم على الجدران وفوق الوسائد وعلى البلاط . أمه وأختاه تحت أيكة الرعب ، والأب يتلو : قل لن يصيبكم إلا ماكتب الله لكم . أخوه الصغير ينام في سريره ، والدويّ القاتل يقترب . فجأة بهقت الطلقات ودُحرجت القنابل على البلاط . قُذفت أخرى داخل حجرات البيت . وكما يُذعر فأر أو أرنب فاجأه الخطر ، طار في الفضاء بقوة الانفجار فإذا هو مقذوف من

نافذة المطبخ الذي تهشم زجاجه إلى المنور المظلم .

حدث الأمر كما في كابوس أو رؤيا جحيمية أحالت العالم إلى هيولى ملتهبة بالأضواء وألوان الدم والصراخ البدائي .

بعدها هبط مساء ساجٍ ، جنائزي ، وقال الموت :

أنا رحمان الخليقة . أقول للمخلوقات لاتكوني فلا تكون .

في عرس الدم ، الذي أُشعلت نيران احتفاله في سماء المدينة الحزينة ، في النصف الأخير من القرن العشرين ، وإبّان هجوم البر والبحر والجوّ على المدينة المحاصرة من قبل قوات العدوّ العطشى للدم ، بدا كأن العالم بأسره تحت محفة الله غير الرؤوف وغير الرحيم ، كان مشغولاً برحلة صيد ، أو لعبة بلياردو في ولاية كاليفورنيا أو على شواطئ بحر الظلمات العربي . كيف يروي للمرأة المُهانة والمغتصبة ، مهانته واغتصابه ؟ ومالجدوى من صدمة ثأرين في وقت العجز والشلل وسيطرة قانون القوّة العمياء ؟ وقت داهمهما وذبحهما ثم ترك دمهما يصعد على شكل أبخرة في ألياف الأوردة والشرايين وعصيّات الأعضاء الجنسية .

هل هو الوقت السريالي ، وقت اللامعقول ؟ أم أنه وقت الوحشية والجنون والقتل العميم وأحذية الغباء والحليب الملوث والشيزوفرينيا والأوكسجين الكربوني الناضح برائحة المراحيض وحثالات البشر ـ الخنازير المجبولين بالروث والحيض ووحول المستنقعات ؟ يطل الآن عليه وعليها ، في هذه الهدأة الرحمانية الموازية لشفرة مقصلة حُرِّرت من خُطّافها .

في ذلك الزمن الفوّاح برائحته البربرية وعذوبة موته ، صدمته تلك المرأة . لشدّ ماتبدو مراودَتُها حارّة وحميمة في وقت آخر . وقت النقاء والهدوء والأمن . لو يُلقى كل هذا العفن والتحلل والفساد والجثث والروائح الكريهة في أعماق المحيط ، فيكونان في جزيرة وقد امّحت ذاكرتاهما . جزيرة الأشجار البكر والأعشاب الاستوائية والطيور البيضاء ، والوعول ، مطوقين بالبحر ، في الطرف الأقصى

حيث العالم البدائي الذي لم يُلوّث .

قرع الجرس فانسربت من بين ذراعيه عابرة المطبخ لتفتح الباب لزوجها الذي قدم فجأة .

أغلق باب غرفته واستلقى على السرير . وهو عائم في دوار الحالة المزدوجة تنامت إليه أصواتهما العالية في مايشبه الشجار .

هل بدأ دبيب الشك يصعد رأس الزوج ؟

حتى ذلك الوقت كان رجلها مهمَلاً في هذه المعادلة الصعبة ، والمسرحية الخفية التي تدور بينهما . بدا هامشياً أو في حقل النسيان خارج احتدام الصراع الناشب بين مدّها وجزره . في قرارتها ماكان بالرجل الجدير بالاحترام ، أو الحائز على الحدّ الأدنى من النخوة والرجولة . إذ كيف يسمح رجل لنفسه أن يتخذ من امرأة وطأها أخوه أن تكون زوجته وشرفه لو لم يكن وغداً ؟ بدت كأنها تمسك بهذه الوثيقة صكَّ إدانة أو وصمة عار ، هو غير قادر على تمزيقها أو محوها من حياته معها . ولأنها مجروحة من فعل الأخوين عمَّقت أكثر فأكثر احتقارها لزوجها . ازدرته حتى تاخمت حدود الثأر منه بالرجل الغريب ، ناجي العبدالله الذي لايعرفه زوجها ، والذي ارتضى تأجيره غرفة طمعاً بالمال لاحبّاً بإيواء غريب في بلدة صغيرة قد لايجد فيها مأوى ، كما ادّعى وأشاع للآخرين . لماذا يبدأ الشك الآن بالغريب العازب ، ولم يبدأ مذ عرض عليه الفكرة صديقه القصار ، وهو العارف بالطبيعة الاستهوائية لامرأته التي يرى فيها أنثى منحلّة افتضّها أخوه وارتضاها ثيباً ؟

هذه الأسئلة والاستنباطات كانت تهوّم في رأسها أو رأسيهما معاً ، آن بدأت جراثيم الشكّ تنمو وتتجسم في خلايا الرجل المخدوع .

صوت آنية تصطدم بجدار ثم تتهشم برنين مصدٍ ، تلاه صدى صرخة مصحوبة بكلمات : وحش . خنزير . خلخل فضاء الغرفة ، مُطلِقاً في مجرى الأعصاب ملايين الإبر الملتهبة .

عندما اقتحم الصالون ليستطلع ماجرى ، فجأته المرأة وهي تضمّ بوران إلى صدرها الخافق بالنشيج . بدت له والطفلة ، حيوانين ضعيفين ، مهدّدين ، يكادان يخترقان الزاوية الصلبة طلباً للحماية .

في الزاوية المقابلة كان الزوج ملتماً في عربته . ماكان وجهه إنسانياً . لقد حوّله الهياج إلى مايشبه الثور في حلبة مغلقة .

ـ لاشيء . لاشيء سيّد ناجي . خرجت العبارة لاهثة ومفككة ، محمولة على رُغاء من نثار زبد أبيض يسيل من الفمّ على زاويتي انفراج الشفتين .

ـ لا . لا تصدقه . لقد حاول قتل الطفلة بالمزهرية . انظر .

كشفت المرأة عن ذراع ابنتها المصاب قرب المعصم . كانت كدمة بنفسجية ماتزال حارة ، بادية الورم .

ـ عمو ناجي لاتتركنا . بابا مجنون . يكرهني أنا وتيدي وماما .

بضراعة وجه كساه الذعر . وجه طائر صغير ، عيناه بلون العسل الصافي ، ملتف داخل دغل وأغصان أمه ، سالت الكلمات في فضاء مأساوي واصطدمت بدم قلب ناجي العبدالله .

ـ لاتصدقهما . كاذبتان .

هذا البهيم . ماذا سيفعل لو لم يكن عاجزاً ؟ هجس في سرّه .

كانت المزهرية مهشمة ، وفوق البلاط تناثر الورد المفتت ، بتَلاتُه الأرجوانية والبيضاء تسبح كالفراش فوق خطوط متعرجة ومموجة من مياه المزهرية .

ـ أخي عبد الرحمن . هذا خطأ . أنا لاأريد أن أكون طفيلياً أو قاضياً ولكن ماذنب الطفلة ؟

الغضب ، والمقت ، والإحساس بالكراهية ، جرى التعبير عنها بهذه العبارة المخفَّفة بعد أن غمسها في غدير بارد ليطفئ حريقاً بدا واضحاً أنه عازم على إشعال البيت .

راح الزوج يتململ مهتاجاً وهو مقيّد الحركة على كرسيه ، كما سلطعون بحري بوغت بعدوّ داخل جحره الصخري الضيِّق .

كما لو أن الغريب أوحى للأم أن تخرج بحركة غامضة ، تشبه الشيفرة السرّية ، اندفعت ومعها ابنتها باتجاه غرفة ناجي العبدالله .

ـ مرة أخرى سيكون الثمن غالياً . سنرى ذلك قريباً . بغضب قال الزوج المزبد للمرأة التي صفقت الباب وراءها .

كانا الآن وحيدين ، الرجل الغريب المشبوه ، والزوج المخدوع ، على خشبة المسرح .

ـ هدّئ روعك . قال ناجي العبدالله للسيد عبد الرحمن التاجي ، بعد أن جلس على الأريكة وأشعل سيكارة .

ـ أي روع يارجل . هذه امرأة من سلالة إبليس . بل هي الشيطان بعينه . كيف يبقى لك روع وحياتك مسمّمة !

ـ ولكن ماالذي جرى ؟

فجأه السؤال . وضع رأسه بين راحتي كفه متخذاً وضع الرجل المكروب ، العازف عن مواجهة الحقيقة . تعبيره عن الحياة المسممة ، هذا المجاز الدقيق ، الكثيف والجوهري ، الذي يلخص تاريخ أسرة ، هبط عفواً على نحوٍ متسلّل من فجوات لاوعيه المختزن تاريخه وتاريخها المأساويين .

ـ مارأيك بكأس قهوة ؟ لم ينتظر جوابه . نهض إلى المطبخ . وضع الركوة على الغاز ثم ولج سريعاً إلى غرفته .

كانت المرأة وطفلتها مستلقيتين على سريره في حالة هدوء وسكينة . طوّقهما . داعب بوران وقبّلها ثم مسح شعر الأم المُشعَّث والفوضوي : اهدئي قليلاً . إنني أجهز له قهوة . فيما بعد نتحدث عن الأمر . وبحركة سريعة أدار الراديو وحرّك الابرة بحثاً عن موسيقى .

وهو يحمل صينية القهوة باتجاه الرجل المُقعي في جوف

عربته ، باغته إحساس بالتواطؤ . غطاء من القش الهش يغطي حفرة في غابة صُنِعت لتكون مصيدة . إذ قدّم له فنجان القهوة صعد المقت إلى الحلق . ذراعا الرجل المقعد اللتان امتدتا لتناول صحن القهوة ، تراءتا ذراعين لحيوان بحري مشعّر ، أشقر البَشَرة . أصابع كريهة ، حاقدة ، قبل لحظات كانت تقبض على عنق مزهرية ورد لتقتل طفلة هي في مرايا شرّه المستتر ، ابنة زِنى ليست منه .

ـ شكراً أخي ناجي . بارك الله بأريحيتك . بدا خجلاً ، ومتوحداً .

ـ الحياة دَيْنٌ ووفاء . نحن أهل . اعتبرني أخاك الأصغر .

العبارة الأخيرة أرعشت كأس القهوة المرفوع نحو شفتيه الزرقاوين ، الجافتين . كم بدا ذلك الرجل ، منافقاً . ذليلاً ، وبلا روح !

ـ كأس ماء من فضلك . قال ليرطِّب جفاف الحلق والضغينة .

منذ هبط هذا الغريب ، غيرالفضولي ، لم يُشِرْ عبد الرحمن التاجي بكلمة واحدة إلى قصة زواجه ، وهجرته الاضطرارية من مدينة مليلة ، حاملاً معه سرّه المكتوم ، كمن يضع في جيب معطفه قنبلة وأصابعه على رتاجها غير الآمن .

ولأنه كان يتخيل أن السرّ ـ الفضيحة موزع أخلاقياً بالتساوي بينه وبين زوجته ، افترض بالبداهة أن المرأة هي الأخرى نائمة على أعشاب حُفرة السرّ العميقة .

وهكذا إذ بدأ يحكي عن حالة الشجار التي نشبت قبل وقت قصير ، راح يراوغ ويخاتل ، ويدخل في الإبهامات العمومية حول النكد النسائي وقصور المرأة العقلي ، وإهمال الواجبات الأسَرية ، وتحميل المرأة في بلاد العرب عبء فشل مؤسسة الزواج .

ـ المرأة ، أخي ناجي ، هي الشرّ المطلق . صدّقني . أنت لم تجرب الزواج بعد . نصيحتي لك أنا المجرّب أن تبتعد عن هذا الوباء .

ـ ربما كان الزواج شبيه شراء ورقة يانصيب . لكن تعميم الحالة الخاصة يحمل غبناً . ثمة نساء مختلفات . الثقافة . التربية . البيئة . الأسرة .

ـ لا . لا غلطان . حاملة الدكتوراه لاتختلف عن راعية الغنم في بلادنا . كلّهن من جِبِلّة حوّاء الملعونة التي أغرتِ آدم وأخرجته من الجنّة . اعترض فكرته قبل تتمتها . لكنه ظلّ محموماً ، راسخ القناعة .

ـ ولكن الرجال هل هم ملائكة ؟

كان الحوار مسدوداً ، بعيداً عن أي إيقاع موضوعي ، في مجال رجل مُهان ، ارتضى لنفسه أن يكون ستارة مثقوبة لغشاء مثقوب على مسرح السديم الإسلامي المقدس .

❊ ❊ ❊

حكاية قاسية في زمن أكثر قسوة . حكايتنا . نحن الذين سقطنا عفواً أو عنوة فريسة زمن اللوياثانات بعد أن توطد مجدها الساطع تحت شمس الشرق الآفلة .

هانحن إذاً ، بعد الطور الظهوري لانبثاق مجد هذه الآلهة الجوفاء ، ورسوخ أقدامها في بلادنا الموحلة ، نشهد تألق عارها ، وعارنا ، عهرنا وعهرها المنتشر على هذا المدى الصحراوي في الربع الأخير من هذا القرن .

إننا نهتف ، ونحن مصعوقون بالتياث مكهرب ، تحت ضربات السوط المرعب في مسيرات تبدأ من بداية شروق الشمس حتى مغيبها : لاإله إلا هذا اللوياثان العظيم . واهب الأشعة والمطر ، منبع الحب والفرح والسعادة المطلقة للنشوة العضوية وهي تتدفق منْياً في الأرحام التي ستلد أطفالاً يهتفون بمجده الأبدي لحظة خروجهم إلى النور . نوره المُستقى من المعنى القديم ، السرمد ، الذي لاتحيطه الأبصار . المعنى الشبيه بالشمس وشعاعها ، والقمر وانعكاس وهجه ، في الجوهر الأول للكون ، قبل انبثاق الخليقة

وبداية الخلية الأولى .

في وقت ما والعصر الماكر ، الوحشي ، يغدر حتى بالأجنّة في أرحام الأمهات ، ستقول تلك المرأة المغدورة : لماذا تدير ظهرك للآلام ؟ أحقاً لاتستطيع أن تفعل شيئاً في وجه هذا السمّ المستشري ؟

أيّها الهرقل الجبار ، قاهر الطغاة على الأرض ، يامن سيفك يخترق صخور الجرانيت ، ويشعل البروق ، لماذا أنت هناك على رصيف التسوّل والأنين والعجز ، وأنت القادر على دحر الجيوش الجرّارةوشبكات الأمن المسلح ، وفصائل الحراس المدججين بأسلحة الموت ؟

- إنني أدّخر قوتي الخارقة لليوم الأعظم . هوت العبارة في غبار ميلودرامي .

تحت ظلال الحطام البشري . حُطام القطيع الذي تهشمت إنسانيته بهول الجوع والرعب ، كان الحوار مع امرأة تنشد حباً وإنقاذاً ، يأخذ سياقاً تهريجياً ، مفعماً بمرارة السخرية والخواء الروحي لجوهر الإنسان وهو يُمسخ .

هوذا بعد صدمة الأصيل وشجار الأسرة ، يواجَه بحالة جديدة من التفكك والغبن ، وهاهي ذي المرأة التي تهوي في حدائق العشق ، ترمي عليه جزءاً من تبعات صدّ هذا الغُبن ، ومواجهة السلطة الذكورية لزوجها العاجز جنسياً ، الزوج الذي يعوّض عن قصور المضاجعة الثأري بهذا الرُّغاء البدائي لما يقارب القتل .

في تلك الحقبة ، التي سيُغْفَلُ تاريخها في مابعد ، وتُمْسَحُ من أرشيف العصور ، حسب التقويم اللوياثاني ومؤرخيه الذين يسجِّلون مآثره وفتوحاته الخارقة ، ويطمسون تاريخ عاره الأسود ، ماكان ناجي العبدالله ، الهرقل المزيف في ذهن المرأة ، قادراً على أكثر من رؤية الحطام البشري وهو يتساقط كطيور بجع أبيض انفرد به صيّادون من فصيلة المافيا مهووسون برائحة الدماء . ولكي يهرب

من هذه الحالة اللعينة ، والمدمِّرة ، وأصداء ذاكرة الموت ، خرج إلى شوارع البلدة باتجاه شاطئ البحر .

عدّ الأشجار الناهضة على ضفاف الشارع ، والمصابيح التي تتوهج كأقمار اصطناعية . وإذ رفع رأسه المتعب إلى السماء السحيقة تراءت السحب طيوراً وغزلاناً ودببة وتماسيح وكلاب صيد ونساء مفتوحات الأذرع وزوارق من قطن . ثم وهو يهبط من الأعالي رأى أوراق الشجر تتلألأ تحت الضوء بالندى الهابط في بداية الغسق . صمت عذب يرشح من خلايا الليل والأشياء ، ورجل تائه ، غريب ، فائض عن الوجود ، يسري داخل هذه العذوبة المجانية ، مطوّقاً بوشاح المساء ، ووشاح المرأة المنكوبة ، ووشاح الزمان الجارح .

من لمعان الندى على أوراق الشجر خرجت عبارة المرأة العاشقة : أنت تهرب من مواجهة الآخر فيك .

في السرّ الخفي ، المختزن في سراديبه خوفَه وعجزَه وثأرَه المُستبطن ، ربما كان يرى فيها الأنثى ـ الأنيما التي اجتُثت منه في زمن سابق ، غامض ومبهم ، وعصيّ على الوضوح . زمن ماقبل التدمير والانقسام الخلوي وخراب الروح . الآن في هذا الواقع المنتهك ، والملوّث ، لماذا تبدو أنثى الشبق والابتذال ؟ ولماذا يتسع هذا الانهدام بينهما ، هي المنهمكة في عضويتها ، وهو المطارِدُ سرابَ ثأره ليقيم التوازن في أسس الأشياء التي اختلّ ميزانُها ؟

آن ينفض رأسه المضطرب بحركة تنزع للصحو ، تواجهه في السماء التي صحت ، نجمة تتلألأ كما طفل يرقص في سحيق الكون . في تلك اللحظة المباغتة تتبدى تلك المرأة المائلة على حافة الهاوية كنجمة المساء . نقية ، متوحدة ، منيرة في فضاء موت بارد .

ـ أندفع نحوكَ كمجنونة وأنتَ تهرب مني . قل لي هل ترى فيّ شيئاً ملوّثاً ينفرك مني ؟

هي كانت تتوهم ظلالاً من الكبرياء ، أو حصانة الإغواء . مكر

الرجل المتوارث لامتلاك المرأة التي احترقت خلاياها وهوت في جحيم الحب . وفي خلفية مرآتها المهشمة كانت تتصور أن امرأة نالها رجلان ليست جديرة باستهواء آخر ، لايرى فيها أكثر من أنثى ممرّغة ، سهلة النَّيْل ، ومُنتهكة .

ولكن كيف يمكن إيصال فكرة بسيطة ، قد تبدو شديدة التعقيد . فكرة أساسية في السياق الشخصي ، عن حالة إنسان لايرى في الحب أي معنى . إنسان فقد حالة النقاء ، والتوق ، والشهوة ، والاندماج . إنسان مصاب بما يشبه العنانة النفسية والعضوية بعد أن هوى في ساحة مرايا الدماء والموت ؟ ولأنه كان زماناً مضطرباً ،موشى بالحماقة والعنّة واللامعقول ، وماكان زمانهما ، سقطا فيه مصادفة . غُدِرا كما سمكتين في شبكة داخل بحر شديد الاضطراب والجنون . كان الصدع عميقاً والدمار جرى في الوقت الماضي ، آن كانا طفلين صغيرين أو مراهقين مجتاحين برياح العواطف العذبة ، والشهوية ، رياح المسرّات ، والبراءة ، والتوق إلى المدن الفاضلة ، والغابات العذراء ، والحنين إلى أحضان الأمهات العبقى برائحة الحليب والغار والدفء الحميم .

هو ذا القطار يهدر في الظلام الرمادي تحت سماء غائمة . ثمة حركة غير عادية في الممرات . ناس المقطورات خرجوا ليتنفسوا هواء الليل . كان اللغط يشي بوضع يثير الأسى والمرارة . صقيع الليل يتوهج في ذرات الأشياء . في حديد العربات وواجهات المقصورات وعظام الناس . وإذ دوّت صرخة العجوز في فضاء القطار والليل ، كان الطفل قد اجتاز بوابة صقيع الموت .

تحت صدى الصرخة داهمه انقباض أصمّ . إحساس بالحصار . شعور مجوّف بعزلة لانهائية .

في مامضى ، سمع مثل هذه الصرخة ، في وقت أشدّ هولاً . هو الآن ملقى كقنديل بحر يطفو داخل لجّ تغزوه التيارات . تحت فضاءات البحر والسهوب المديدة سمع صوت طائر الهجرات ينوح :

أأنت حي أم ميت ؟

في غمرة هذه الحمى ، العابرة ، داخل إيقاع حكاية لامعنى لها ، في الخيال الفسيح الممتد كوشاح أرجواني ، تبرق ذكرى بعيدة . فتاة المدينة بعد أن نُزِعت أحشاؤها وترمدت .

ولكن من أين انبثقت هذه الذكرى التي كانت غائبة ومنسية في غمرة هذا المهرجان السريالي العابق بالهروب والنأي وضوضاء القطارات ؟ بدا المساء في غسقه وهما يسيران على رصيف شارع النهر . وقت عذب ، ملوّن . ينشر الهواء في الجسد رائحة الأعشاب ورطوبة الماء ، ووهج أنثى تودّ لو تتوارى في جسده . يوغلان أكثر في البساتين وهما مطوّقان تحت ظلال الغسق . مشتبكان كما الأغصان في عمق ليل يتدفق بأصوات هدير النهر والارتعاش الغامض والسحري للأرض والفضاء ، وهذا التماسّ الماكر للأصابع والأضلاع الذي يرفع نبض الدم ، هاجساً بما سيكون وماهو مُشتهى بين اثنين كل منهما يرغب الآخر ، هنا في هذا العراء الأخضر المُغطّى .

في تلك الليلة الغريبة بدا الهلع يكتسح المدينة . إيقاعات مفزعة كانت تطوف داخل البيوت والنفوس تنبئ عن حدث مروّع وشيك . كانت الأنباء والشائعات تطير من بيت إلى آخر عن العسكر الذي يطوق المدينة ، وإعلان حالة الطوارئ . شراذم عصابات متمردة ، تغتال ، وتحرق المؤسسات ، وتروّع الآمنين ، وتوزع منشورات تدعو للمقاومة المسلحة .

في غمرة هذا الاضطراب ، وتحت إيقاع الخطر المرتقب والتوجس المهيمن ، التقيا في الشارع القريب من النهر . عبرا الجسر وأوغلا في البساتين ، وليتدفآ تضامّاً في عمق الاخضرار . حيوانان أليفان التمّا تحت أيكة . ماقال أحد منهما شيئاً في فراغ الفزع . وحدها مسامّات وخلايا الجسد كانت تحكي في فضاء سكينة هابطة من الهواء والشجر ونبض الأرض .

ـ أنبقى معاً في هذه المسرّة ؟ سألت في مابعد .

وقال : كم أرغب .

وسألته إن كان سيسافر حقاً . وردّ : لاشيء مؤكد حتى الآن . وجرى حوار مشتبك حول المستقبل الغامض ، والعلاقة المضطربة بينهما ، والحبّ الذي يتخطى حدود الجسد ليبقى حيّاً . الحب الذي يتجدد كالفصول ويشرق كالشمس . وقال وهو موغل في صليل دمها البهيج : علينا أن نقهر رتابة الوقت ونبض الخوف .

وتساءلا في أعقاب انقضاء الشوق والشهوة وهمود احتفال الجسد ، عن ذلك الشيء اللعين الهابط مع ظهيرة القيظ : الضجر والرتابة وتكرار المشهد الواحد وبرق الانقسام .

وهو يداعب الحلمة وانهدام النهدين وشحمة الأذن ، لائذاً في شميم الإبط ورائحة الغار والحليب وزبد البحر ، قالت الروائح التي ستتبدد : كيف تكونين دائماً الأنثى التي تُشتهى . الأنثى ـ الأم . صديقة الأزمنة الصعبة والمهالك . كيف تكون الرجل ـ الكنيف ، العاشق ، والأب ، والصديق في أزمنة الاعصار وهبوب رياح الموت . قالت .

ـ أنت ترتعشين .

ـ خائفة .

ـ مم الخوف وأنا معك ؟

ـ الوقت لايوحي بالأمان .

ـ أي وقت ؟

ـ هذا الذي نحن فيه .

ـ ياللهراء !

كانت السحب السوداء تتراكم في سماء مدينة الكريستال والسمسرة ومافيا الموت السرّي . سحب واهية كخيوط عنكبوت حيكت خلال عشرين عاماً من الأمجاد المزيفة والهتافات وابتهالات

الحماقة والغباء وهذيان الآلهة الصلصالية المحصنة بالبنادق وأقبية التعذيب .

ذلك المشهد المتواري وراء الستار ، كان يراه بمرارة وعزلة . هي قالت أو حدست بما جرى فيما بعد . ولأنه كان يحلم بصور وروائح أخرى ، بعيداً عن الواقع اليومي ، غابت عنه رائحة الحرائق والصدمة التي ستوقظه من غفلته .

في تلك البرهة ، التي تشع الآن عبر زجاج هذا القطار المولج في الضباب ، وهما في احتفال المسرّة والخوف ، قالت فتاة مدينة الأنقاض عبارة قاصمة للقلب : في الأفق أشتمُّ رائحة موت . أنت وأنا هالكان .

وأضافت : أنت لاتفكر سوى بالسفر لإتمام دراستك أما أنا فمتروكة هنا كنفاية وعدٍ ليس إلّا .

في حمّى الجدال المشارف حدود الاحتدام رمت عبارة انفجار : وأنت ترحل تتخلى عن كل شيء .

ـ ماهو هذا الكلّ ؟

ـ الوطن وأنا .

ـ أي وطن ؟

ـ وطنك هذا الذي تحيا فيه .

ـ هذا ليس وطني . إنني بريء منه ومن دمه المستباح . قذف الجملة كمن يرمي طلقة في جبهة الرأس من مسافة متر .

بينهما انفتحت فجوة تشبه جرحاً . كان صدى الطلقة مدوياً ، ومن مؤخرة الرأس تناثر شيء هش ، هلامي ، موشّى بالدم . خلال العودة إلىالمدينة لم ينطق أي منهما حرفاً . ماتت الكلمات دافنة كل ماقيل وما عمل وما حُلمَ به قبل لحظات .

بعد ثلاثة أسابيع من حادثة النهر والشجار الغاضب الشبيه بنذير عاصفة، ابتدأ عرس الدم والجثث والحطام والرعب

والاغتصاب والفتك البربري بالمدينة التي تحولت إلىخرائب وأنقاض .

هي اغتُصبت ليلاً من قبل دورية الجنود القتلة ، ثم قُذفت جثتها في النهر ، وهو ملقى الآن في هذا القطار العابر سهوب أفريقيا العذراء ، الغامضة . هارب من الجنون والحقد والجريمة واللامعقول وهستيريا الدماء المستباحة في وطن لوياثان العصور الحديثة ، أبِ الشعب الذي أشرقت شمسه الدموية الساطعة على بلاد العرب منذ ربع قرن ولما تهتدِ بعد إلى درب أفولها .

ولكن كيف انبثقت الآن هذه المرأة الأخرى ، وأنت مغطى بالحطام ، لتقول لك : كن ملاذي في أزمنة الهلاك ؟ أي شيطان لعين صدمك بها في هذه اللحظة المتعبة ، وفي أعقاب هذه المهالك التي تستنزف حبيبات الروح وأنت تبحث عن ملاذ !

كان السؤال الذي يدوي في الاعماق المظلمة . أعماق الأرض التي ضربها زلزال : كيف تكون سوياً قبل أن تكون عاشقاً وأنت في وحل المهانة ؟

ويوم اقتحمت تلك الأنثى الأفعوانية ، داخل الرؤيا الأسيّة ووهج براكين الموت ، والبلدان المضمخة بالوحل والدماء ، غرفته ، وهو في حالة ثمل ، وغمره جسد ارجواني مصاغ من النيران ، والموسيقى وشهوات الثأر ، والياسمين ، وملاسة الحرير ورائحة البحر ، أدرك ، وهما في مدار الجحيم العذب ، أن قانون الجسد ربما كان تجسيداً لقوة الله على الأرض إذ تستوطن خلايا الإنسان . آنها هوت الأسئلة في فجوات النسيان ، وبدا الحقيقي والنابض بالدم ، تعويضاً عن الثارات ، هذا الذي يتواشج ويتضامّ ، منهمراً كالمطر في الشقوق الجافة .

طائر الموت الذي ينوح في ليالي العزلة ، فوق السهوب البحرية ، كان يتوارى تحت غلاف الليل ، بينما الجسدان ندى وعشب في غسق ساحر . بدا لهما ، وهما في غبطة الرؤيا الملائكية

المسكوبة في أوردة الدم ، أنَّ بإمكانهما التحرر ، ولو آنياً ، من وضع مطوق ، مرير . ثمة طاقة ، تتوالد الآن من هذا الانصهار العضوي ، تفتح كوّة في كهف مظلم ، من خلالها تشرق الشمس مرة أخرى . انبهار يمحو الوقت والذاكرة مخترقاً مسام الروح والجسد ، هوذا ينيرهما : متألقاً ، وحشياً ، عذباً ، حارقاً كلفح اللهب . ولا رادَّ لمشيئته .

لحظة ، ظهرت له خارج أرشيف الزمن ، إذ رآها كما لم يرها فيما مضى . بهيّة ، مغمورة بحنينها ، مثقلة بجسد جاهز للتضحية والفضيحة ، وهي تدخل الغرفة وترتج الباب اكتنفته ظلمة مضاءة بنجوم وأصداف بحر . أطياف فراشات جذبها الضوء ، أقراص عبّاد شمس تتجه نحو الشرق . طيور ترحل وتهاجر في مواسمها محمولة على أجنحة رياح نحو مواطنها الأصلية . رأى أو تصوّر ذلك ، وهو يعوم فوق سطوح المسرّة والتوق والامّحاء وانعدام الوزن . لحظة الرسوّ في فراغ أصمّ .

تخلخل الفراغ بدخولها المباغت . بدت مُربكة ، طافية في الهواء ، وعَبِقة ، كما لو أنها جنية بحر مطوقة بأعشاب مرجان وهالات زهر برتقال . وآن جسَّت صدغه ، وهو مُلقى فوق السرير ، قالت : هل أنت مريض ؟

ـ لا .

وهو ممتلىء بحضورها الزهري ، سألها عن الأصوات وصياح زوجها .

بعد أن حاذته على حافة السرير قالت أشياء حول الخصومة والشجار والغيرة والعُصاب والعجز .

ورمت جملة حول القتل والثأر من تاريخه المُهان .

ثم أوضحت : يبدو أنه بدأ يغار .

بدت على أبواب النشيج : كم أنا تعيسة !

وأردفت وهي تمسح بأصابعها بداية عبرات سالت : ما الذي جنيته لأعاقب بهذا الرجل !

لامس صدغها برؤوس أنامله . جلد ناعم ، حار ، مهجور .

ـ الشك يدمره . أنت عشيقي وتنام معي في بيته . هذا مايقوله أو قاله اليوم ، على نحو موارب خوفاً منك .

رفع رأسه والمخدة مستنداً إلى الجدار . في زاوية من الغرفة جثم صرصار بنّي اللون راح يحرك قرون استشعاره . راقبه وهو يتحرك عشوائياً منحدراً باتجاه خزانة الحائط . هناك تتدلى ثيابه وحقيبته . داخلها أوراق وكتب ودفاتر وصور وكاميرا لم تفتح بعد . تاريخ السفر الهزيل ، والأزمنة الضائعة ، والمنافي .

قرب الخزانة الجدارية نافذة تطل على البحر . فوق زجاجها قطرات مطر . صدى أمواج البحر يتناثر ويدوي تحت هذا الغروب الكابي . وهو يمسّد شعرها الأسود المجِفّ بالفراش ، تذكر الشجار مع فتاة النهر ، في مدينة الأنقاض .

كانت ، قبل موتها الفاجعي ، قد هتفت له لترأب صدع المشاجرة . في سياق الحوار الهاتفي سألته عن مغزى عبارته القاسية .

ـ أي عبارة ؟

ـ اللاوطنية .

حركات قرون استشعار الصرصار ، ذكّرته أو أعادت إليه صورة ذلك البدوي القاتل وهو يطلق النار على ضحاياه الثوريين ومنتقدي سياسته بينما يمجّ ، بشبق جنسي ، شيكاره الهافاني ، مرسلاً في فضاء عصره ضحكاته الهستيرية وصرخات التشفّي .

ـ كيف يمكن أن يكون الإنسان وطنياً تحت سطوة وسلطة هذا الوحش ؟ لم يقل لها ذلك ، لكنه رغب لو يوضح لها بأن بلاداً يحكمها أمثال هؤلاء الأوغاد ليست بلاداً منتهكة وتسير باتجاه الهاوية وحسب ، إنما هي أرض موطوءة ، شعابها ، وفجواتها ، سهلة النيل ، وجاهزة للاستسلام ، والتأوه والنزف ، والسقوط ، ورفع الساقين إلىأعلى أمام فحولة أي رجل ولو كان من سلالة

الخنازير .

وربما كان يود ، ليوضح فكرته أكثر ، أن يقول لها : وإلا كيف يمكن أن تستمر هذه السلالة الرعوية المنحطة في السلطة لأكثر من ربع قرن ، بعد أن دمرت البلاد ، وحولتها إلى مزارع أُسَرِيّة وطائفية وعسكرية ، ونهبت اقتصادها ، ووضعته في مصارف أميركا والغرب ، ولا من يتجاسر على صرخة : لا . لكل هذا العهر ؟

ولعلها ، آنذاك ، قالت أو ودت لو تقول شيئاً له صلة بالغباء والحماقة والتهديد بالقتل والتجسس السرّي والتصفيات الجسدية في كهوف الأمن وآلاف المعتقلين الذين خرّب التعذيب أرواحهم وشوّه اجسادهم .

إنه الشيء الطبيعي ، والمسار التلقائي ، والقانون الوضعي ، للطغمة الخائفة بعد أن استولت على البلاد وأصابعها على الزناد . هوذا التاريخ إياه في عصور الخلفاء وسلالة بني حمير .

ـ هل نلتقي قريباً لتكون الأمور أكثر وضوحاً ؟

ـ لا أدري . أعني لا أستطيع أن أعين وقتاً .

ـ متى ستسافر ؟

ـ الأمر ليس محسوماً بعد .

ـ ولكنك قلت أنك على وشك . . . قاطعها : السيد البطريرك هنا لم يحسم الأمر بعد .

ـ هل قلت البطريرك ؟

ـ والدي خائف من اغترابي وفقدان الأصالة واختلاط الدم .

ـ أودّ ان أراك .

ولم يلتقيا .

قال الموت : أنا وكيل الله على الأرض .

وقال وهو في الغبن المستتر ، فيما بعد موتها على ذلك النحو البربري : أتراها لو كانت تتصور جنود ذلك الوحش سيغتصبونها

في شارع مظلم ثم يمزقون جسدها بالرصاص ويقذفون به إلىالنهر ، هل ستظل حساسيتها الوطنية مُستَفزَّةً كما لحظة صرختِهِ في وجهها على ذلك النحو الغاضب ، الناضح بالألم ؟

الآن يستعاد غروب ذلك اليوم الذي دخل فيه هذا البيت . لاجىء أو هارب من لبنان أو العراق أو أي بلد عربي . الدنيا التي تقذف بابنائها غير المدجنين ، كما أم مُغْتَصّبة لايروق للعَم الجديد أولادها الشرعيون في بيته . هاهما العينان اللامعتان . بريقهما الغارق بالدمع والقهر يقول له : أنا وطنك . هنا مأواك ولستَ غريباً .

تركيز مكثف تحت هذا الغروب الماطر . لحظة تنزع الروح لتصعد في فضاءاتها الغامضة نحو أصلها الذي جاءت منه . نحو الزمن القديم الذي انبثقت منه ، كما البذرة المنسية تولد من رطوبة الأرض . عينان مبتلتان بالندى تقولان شيئاً عن الشقاء والملل والرغبة الكامنة للموت : لو أنني لم أولد في هذا الزمن .

ـ الآن معك أولد .

قيلت أو هُجست في هذا الطقس السري للجسد وهو يبتهل . الجسد الذي ينزع ليستعيد مجده القديم ، قبل الانتهاك .

الثوب الأحمر المشجر بتويجات ورد بنفسجي ، انحسر ، كما انحسار موجة عن شاطىء ، وهي تتكىء على أرض السرير . ساقان من حرير أبيض خاطف للبصر ، توهجتا . وهج عذب ، مؤلم ، شهوي يولد دورانات في بحيرات الدم ، وينسي حليب الطفولة .

ورأى الصرصار الكريه ، البني ، ينحدر بطيئاً على خط زاوية الحائط . شعرها الأسود الطويل يغمر أصابعه ، يُفعمهُ برائحة طفل خارج للتو من حمَّام دافىء مدلك بالصابون العطر والغار البري ، وحنان أم . كان الآن ينازع على حافة الجحيم . جحيم الشهوة التي سرت في الخلايا ، وجحيم الحياد . الرجل الواقع في شبكة عنكبوت . وآن سيضاجع هذه الأنثى سيموت . قالت يقظة العقل والضمير . منفى آخر أو تهلكة سيُوارى فيها ليدخل إلىالأبد في

غياهب هذا الرحم ، وينسى .

تراءى الدم جاثماً في الحلق ، وفي أروقة الشرايين . سدّ جرثومي ، تكاثف بلغمي ، يثير الاشمئزاز . سقوط في عدم غامض ، كئيب ، منفر ، يدمر الشهوة وينثرها في فضاءات لا مرئية . فضاءات ظلمة كثيفة .

في المساحة الخارجية ، بعيداً عن هذا الهذيان المرضي ، بدت له تلك المرأة تحتضن العالم . كانت هي العالم الأكثر وضوحاً ، وامتلاء ، وحقيقية . ماكان هناك من تجسيد للحاضر سواها . ماعدا ذلك كان محض أوهام . تبكيتات ضمير . استرجاعات هلامية لزمن غابر واراه الموت . أحاسيس راشحة بالعجز عن فعل أي شيء في مواجهة هذا الدمار الشامل . أوهام إبادة واغتيالات لطغمة جنرالات استباحوا الوطن وجللوه بالعار . أنين منفيين يحلمون بالضربة القاضية والعودة المظفرة وهم يجترون ذكريات النضال السري والأيام الخوالي لمجد غابر . مجد الزمن الهزيل ، والطفولي ، والضوضائي ، وهم يرشفون القهوة على أرصفة مقاهي المنفى .

ـ من أجلك يحدث لي هذا الألم .

رمت العبارة وهي في بحران النشيج والإثارة .

في تلك اللحظة اندفع الصرصار الكريه باتجاه ساقيها السائبتين على حافة السرير . بحركة خاطفة نهض ، واثباً من اشتباكات شعرها ورأسها وبداية الالتحام مع جسدها الجحيمي . سحق الحشرة وقذف بها بعيداً . كان هناك ساحة في الغرفة شبيه أبله . دهشت من حركته الغريبة ، الخرقاء ، والحيادية .

ـ ياإلهي كم تبدو قاسياً !

ـ وغير شهواني . أكمل العبارة عنها أو أنه تخيل ذلك .

ـ عنيت كم أنت شديد اللامبالاة .

وقالت شيئاً آخر حول هفوة المرأة العاشقة والمبتذلة . المرأة الساقطة في مهانات الزمن والرجال الطغاة .

من أرض الغرفة حيث بدا مربكاً ، أو أخرق ، أو طفولياً ، بعد سحق الصرصار ، تقدم نحو السرير ، بعد أن نهضت وجلست على الحافة ترنو إليه كرجل بائس (تراءى لها وهو يقتل الصرصار في حين كان عليه أن يضاجعها) ، ثم جثا في مواجهتها ، وجهاً لوجه ، وعينين لعينين ، وصدراً لصدر . وراحتاه تحتضنان وجهها الحارّ ، الأبيض ، النابض بالاشتهاء .

ـ أشتهيك أكثر مما تشتهيني . أعرف وأحسّ كم أنت عذبة ولذيذة ودافئة ووحيدة في لياليك الباردة . أكثر من مرة ربما تواقعنا عاريين وهْماً على الشاطىء أو هنا في السرير . إنني أرغب في أن أوغل فيك كما المطر في الأرض العطشى . أن أكون قمرك في ليالي الظلمة الحالكة . أن نكون معاً الندى والعشب . لكم وددت لو التقيتك قبل أزمنة الاغتصاب والتلوث . اغتصابنا وتلوثنا نحن المهانين والمذلين في عصور الأوغاد والسفلة . لكم حلمت هنا في هذه الغرفة أن أسرقك ونطير إلىبلاد بعيدة مغمورة بالثلج والغابات والوحوش الجميلة . بلاد الغزلان والطيور والصيد والنيران التي لاتنطفىء . نبني بيتاً من جذوع الشجر في عراءات بلا زمن في أراضي الله الشاسعة ، بعيدين عن البشر والأخلاق القديمة ، والإدانات والطغاة والأوباش والروائح العفنة وضوضاء القتل والجراثيم والسلالات الرعوية ، حيث نحن والطبيعة . جسدك وجسدي روحي وروحك . حركتي وحركتك ، رائحتك ورائحتي ، صوتي وصوتك ، موسيقاك وموسيقاي في ليالي المطر والثلج وعزيف الريح تلد ، ونحن عاريان كما في بدء الخليقة ، الله والأطفالَ والأوطان ومجدَ الزمن الحي . لكنني وأنا استيقظ من حلمي الجميل ـ الوغد ، والرائع ، كنت أشعر بالتأنيب والخساسة . لا أدري كيف أعبر عن حالتي . إنسان غريب ، عابر ، يشتهي ثمرة ناضجة تدعوه لقطفها وهي محرَّمة عليه .

ـ نحن أبناء آدم وحواء والثمرة المحرمة .

ـ ليست المسألة هنا . ربما كانت الجنة والجحيم مسألة رمزية للردع . أنا مازلت أرثُ بعض الجراثيم الدينية من سلالتي ، ولعلّي لم

أحسم هذا الأمر . ربما أكون في المنزلة بين المنزلتين ، أي في المطهر . لكن الأدهى ، ليس الأخلاقي ، إنما العطب الداخلي ، عطب النقاء والجمال والحرية .

وهو منكفىء بين فخذيها ، داخل الحرارة العذبة ، الدافئة ، الشريرة ، المغُوية ، وهي تضمّ رأسه وتجمعه إلىحرارتها ، قالت أنا مأواك . لماذا لانتطهر من العطب الذي يشوِّهنا ؟

اجتاحته الغياهب . سقط فوق الحطام والشظايا ورائحة الدم والأحماض وأثداء الأمهات المقطوعة وأشلاء صديقته التي غرقت في غرين النهر . وجاءته أصداء الدويّ والطائرات وانفجارات القنابل والذعر وانهيار الجدران وأمواج الكتل المتراصّة الهاربة من الموت ورائحة الغازات السامة .

التصدع وتفكك الذرات المتماسكة . انهيار تاريخي ، وانشقاق لجغرافية جسدين كان من الممكن أن يكونا جسداً واحداً في وقت آخر .

نحن لاشيء في زمن العار . قال أو قالت أو ماتت الجملة في أعماق البحر .

ماحدث في ذلك الغروب ، بين رجل وامرأة ، بدا مشهداً مأساوياً لاصلة له بالحب أو الجنس .

عاصفة جنون ، تلاها برق خاطف .

موجة حنوّ ، حزين ، طوتهما وهما في غمرة الشقاء .

زمن الهروب

في المحطة التالية توقف القطار . بدت الجلبة واضحة . خروج ودخول وضوضاء . أصوات . حالة ذعر . سيماء مرارة واشمئزاز . أنين نسوة وهن يولولن : مات الطفل .

بعد أن صحا من كوابيسه وصداعات الرأس ، انجلت السحب . العجوز ترفض موت الطفل . إنها تناجيه وتهدهده كما لو أنه حي بعد أن مددته في حضنها . وآنَ اقترب منها مسؤولو القطار لمعاينة الأمر قالت بأنه الآن في قيلولة الظهيرة .

أخفقت المحاولات القانونية في المحطة وداخل القطار ، كذلك العطف الانساني ، في إقناع المرأة أن الطفل مات ، ولا بد من نقله إلىمشفى البلدة المجاورة للمحطة .

بدت كأنها دخلت طورها العصابي إذ صرخت في وجوه مسؤولي المحطة والقطار : أيُها الأوغاد . ليأخذكم الموت إلىجهنم . طفلي نائم وأنتم تقلقون أحلامه . اغربوا عن وجهي أيها الغربان . راحت تطردهم بحركات هوائية من ذراعيها ، بينما ينكفىء صدرها ، ويلتمّ حول جثمان الطفل الغافي .

ماعاد بإمكان أحد من نزلاء المقصورة ، حيث الطفل والمرأة معزولان ومنفردان ، الاقتراب . كانوا في الشرفة الخارجية يشاهدون وهم في حالة ذهول ، هذا الوضع الغريب ، المؤلم ، المثير للشفقة .

سيتذكر ، وهو مغلف بالمرارة ، وغيمة من الحياد الأصمّ بعد أن يصل إلىالبلدة الغريبة ، كيف جاءت سيارة إسعاف مع شرطة محطة البلدة ، وكيف اقتحموا المقصورة وانتزعوا الطفل بالقوة من حضن المرأة ، ثم كيف تبعتهم تلك المخلوقة التعسة وهي تولول وتندب وتشق ثوبها وتنتف شعرها كاشفة عن صدرها العاري ، في الوقت الذي أحاط بها الممرضون والرجال ، محاولين بيأس ، تهدئتها وهي تلطمهم وتضرب رأسها ووجهها وصدرها ، نادهة بأصوات لابشرية عبر مزيج من الفحيح والعواء والثغاء والنشيج والأنين المثكول .

هي الأخرى كانت تموت . كان يراها وهو مصمت كحجر ، على نحو ميلودرامي قاسٍ ، وغير عقلاني ، لكنه في الجوهر مدمر للأعصاب والروح .

بعد أن استأنف القطار رحلته ، وخلت المقصورة من مرأى الموت ، أحسَّ بالراحة مع الآخرين ، كما يحدث في أعقاب عاصفة مجنونة يرين بعدها الهدوء والصمت . هدوء وصمت مُمِضّان يقولان شيئاً من نوع : لماذا ؟ لماذا ؟ وكيف ؟ ومامعنى هذا الذي جرى ؟

وهو متكىء على إفريز الممر الخارجي رأى بداية الشروق . من خلال سجف السحب البنفسجية بدت خيوط الشمس البرتقالية تتوهج . بين التعب والنعاس وضجيج عجلات القطار داهمته فكرة غريبة : كم كنت سلبياً أمام مشهد الموت !

وقال ، وهو تحت أيكة العزلة : أنت تهرب من ذلك الشيء الكريه . عبارة ستقولها تلك المرأة ، في مابعد ، آن كان يحايد عن الاستجابة لصرخاتها الداخلية :بمثل هذا البرود والحياد شاهدت موتهم وأنت مختبىء . هي أو هو أو هما معاً قالا العبارة في السر . العبارة التي سترنّ كالناقوس في أروقة مسارات الدم الصاعدة في شرايين القلب .

لحظتها سَمِع صوتُ صريف الأسنان وهي تُسحَج . صرخة مكتومة لمعتقل في زنزانة يصعقه التيار الكهربائي في حلمتي ثدييه .

ـ أنت أيُّها الهارب .

من نافذة غرفته ، وهو يضغط الحديد البارد للإفريز . شاهد عبر الأفق البحري طائر الليالي البيضاء . طائر الطفولة المفقودة هناك في البراري المظلمة ، يهوي تحت الغروب بطلقة مختلجاً بدمه ثم ينام هادئاً في سرير البحر .

ـ جميعنا موتى في هذا الوقت الغارب .

قيلت الجملة تحت الصريف ، الحزين ، والغاضب ، والراشح باليأس . وإذ أردفت ، وهي تتدثر بظهره المنكفِىء على النافذة : سامحني . لم أقصد جرحك . قال : لايهمّ . ما لجُرحٍ بميِّتٍ إيلاُم .

ـ أنت تزدريني وأنا أشتهيك .

واستدار نحوها . رأى مرارتها ، وشهوتها ، وظلال الدمع ، وحبيبات البثور الحمر على خديها ، ووهج الشفتين الضارعتين . الرغبة الكاسحة لعاصفة تكاد تخرج شرراً من أنسجة الجسد وأنسجة الثوب المشجر ، وتحته العُري الكامل الجاهز للانصهار والموت .

ـ ماترينه يادميانة ربما كان سراب الأشياء وظلالها . الآن أنا هارب أو لاجيء أو منفي أو منبوذ أو لاشيء . مجرَّد طوف فوق محيط منسي . وآخرون في المعتقلات وتحت التعذيب وفي المقابر . ولكن هل بإمكانك أن توضحي لي : مالذي تستطيع أن تفعله الطيور والأرانب والسناجب والغزلان وحتى الصقور والفهود في غابة وحش كاسر استشرى برائحة الجثث والفرائس وطعم الدم ؟ وحش مدجج بكل صنوف الأسلحة يطوق الغابة مع صياديه ويقتحم حتى أوجار النمل ويدمرها . وحش يصرخ في الليالي والنهارات : من لا يعلن ولاءه لي ، أنا السّيد وليّ الله على الأرض ، فهو عدو للوطن

ويستحق الموت .

وقالت دميانة وهي في قرارة الغمرة الحزينة ، والمهجورة : ولكن أنت وأنا يمكن أن . . .

وصرخ وهو يضغط بقوة أصابعه على رمانتي كتفيها الصلبتين : اسمعي جيداً بعيداً عن رنين الشهوة . أيّ شيء هو الآن خارج الإمكان . أي شيء لا معنى له قبل إبادة هذه السلالة البربرية . سلالة البدو والرعاة . همج القرن العشرين الذين ابتلينا بهم كوباء وطواعين وجراثيم عصية على الاستئصال . ورثة الحجاج وأبو العباس السفّاح ومسيلمة الكذّاب ويزيد بن معاوية والمتوكل على الله والواثق بالله والمستكفي والمستنجد والحاكم بأمر الله وسائر اللاهات التابعة التي ولد من خميرتها هذا العبيد الله بن أبي ضبيعة الكلبي ، ختام التاريخ السلالي ، عدوّ العقل والحرية والحضارة والأمل والمستقبل المضيء .

نحن الآن ياعزيزتي دميانة في عصر الزواحف بينما البشر الآخرون يغزون الكواكب . هل فهمت ماأعنيه عن موت الحب وموت الانسان فينا ؟

❊ ❊ ❊

في تلك الليلة ، بعد شجارهما ، هربتُ من مناخ البيت المكهرب ، الى العاصمة . كنت متوحداً ، وغريباً وأنا أسير على الأرصفة ، تدوي في نفسي أصداء صنوج آتية من متاهات ، وظلمات ، وانكسارات ، لا أدري كيف أستتر منها ، وأنجو .

ولجت حانة «قنديل البحر» وأنا مدثر بكآبة رصيف مهجور . جلست على كرسي البار وطلبت كأس براندي . حيَّاني البارمان الذي يعتبرني أحد رواد الحانة المحترفين : أهلاً وسهلاً سيّد ناجي . من زمان هالقمر مابان .

ضحكت وأنا أرد التحية : أهلاً بك سي كوزموس ؟

ابتسم مندهشاً وهو يقدم الكأس : كوزموس ؟

ـ كوزموس سفينة فضائية تكتشف الكواكب والأقمار . أنت اكتشفت الآن أنني قمر .

ضحكنا . قال مسايراً : عنيت سي ناجي أننا اشتقنا لمرآك .

ـ أدري . أدري . العمل المتواصل لايسمح بالراحة .

ـ يعطيك الصحة .

ـ بصحتك . رفعت الكأس وشربت نخبه .

ـ بولينا سألت عنك .

ـ إبنة ماركوس ؟

ـ الفيلبينية . بولينا ، ألا تتذكرها ؟

ـ أدري . كل الفيلبينيات بنات ماركوس . هذا ماعنيت . وبإشارة رمزية ، ذات مغزى جنسي ، كورت قبضتي وحركتها أفقياً في الفضاء .

ـ هاء . هاء . جلجلت ضحكتانا .

هذا الإيقاع الكوميدي ، انكشف لي بعد الكأس الثالثة . تحت لمعانِ وسريان البرانديِ ، كإخراج مسرحي داخلي لطرد الكآبة وإشاحة الجّو المعتم المـخّيم على الروح .

كفّ ناعمة ، دافئة ، وأنا منغمر بأمواج موسيقا البار ، غطّت عيني .

ـ بولينا .

ـ أنت ذكي مستر فيديريكو . أعني مستر ناجي .

طوقتها من خصرها وهي تصعد إلىالكرسي المجاور . وإذ استوت وتواجهنا ، بادرتني بقبلة : مضى عليك أكثر من شهر . أين كنت في هذا الوقت ؟

ـ العمل ، بولينا ، في التوكيلات البحرية ليلاً ونهاراً .

ـ اشتقت إليك .

مع إتمام العبارة حضر كأس الويسكي .

ـ أنت الليلة ضيفي . بادرت بغتة لتصادر التوقع المعهود .

دُهِشت من هذه المبادرة . بدا الأمر مربكاً ، ومراوغاً . وإذ حاولت الرفض ظهر إصرارها الحقيقي غير الماكر .

ـ أكثر من مرّة دعوتني . لماذا لاأدعوك ولو لمرة واحدة ؟

ـ أوكي . كما تريدين .

انخرطنا في حوار متقطع ، حول الحياة والمدينة والتقاليد وماجرى في حرب لبنان والشرق ، وما يجري في العالم ، وسطوة الجنرالات ، وعالم المومسات ، وانهيار القيم ، وسفالات الرجال الذين ينامون معها ، والحب المفقود ، وموت أمها وزواج أبيها من امرأة أخرى ، وانخراطهما في تجارة المخدرات مع طغمة العسكر الماركوسي والتجار والسماسرة .

في مناخ هذا الحوار سألت فجأة : أنت كيف مزاجك الليلة ؟

ـ مزاجي رائق اليوم . ولكن لماذا ؟

ـ المرة الماضية كنت سوداوياً . أتذكر ؟

لم تستخدم كلمة «شرِّير» مراعاة ، ولياقة ، عندما بدأت تروي عبارات حول هذياناتي ، ليلة ثملت وكنت على وشك إهانتها ، مكتفياً بقذف الكأس إلىالجدار ، وترديد مقطع من قصيدة غارسيا لوركا .

ـ لابد أنني كنت متعباً في تلك الليلة . هل عليَّ أن أعتذر ؟

ـ لا . ربما كنت أنا فضولية وحشرية أكثر مما ينبغي في التعارف الأول .

فضاء البار هادىء ، موسيقاه بعيدة عن الصخب . الروَّاد من الجنسين متواشجون في غمرة حميمية ، بعيدة عن الصخب .

لأمر ما ، لا أدركه ، تبدو بولينا عازفة عن الرجال الذين إنتحوا الزوايا المظللمة أو الذين يحفّون بنا على كراسي البار .

كانوا يرشقون عبارات وكلمات فضائية أشبه بشصوص صيد ، وبولينا تضحك هازئة ، وهي تقول : إنهم يسنُّون الأنياب كما ترى وتسمع .

ـ الأنياب السفلية .

ـ كم يبدو الأمر مثيراً للقرف !

ـ الغريزة تُستفزّ مع الخمرة . هذه هي الحياة بولينا .

كانت الآن في نهاية كأسها الثانية عندما قالت شيئاًله علاقة برفضها أن تكون فريسة للرجال الذين يغتصبون بوحشية لأنهم يدفعون . كما روت أموراً ، وهي في ظلمات حزنها وأساها ، عن الحقارة والانحطاط وبؤس الانسان والجسد المنتهك كجثة . عن موتها البارد وهي تحت وطأة أجساد الرجال الذين يلغُون ويلهثون ويتمرغون ثم يهمدون كالخنازير في الوحل . وسألت نفسها أو سألته : كيف يكون الانسان إنساناً وهو جائع ؟

غَزَته كآبة . هَمَت الظلال والأشباح . من دميانة إلىبولينا ليس سوى المضائق والانهدامات والنزيف . وهو الأعزل في كون وغد ، مسلح ، مسنون ببروق المهانة ، والتجويع ، والقتل .

وهو يطوق كتفها ، تضامناً مع مرارتها وتعبيراً عن عجزه ، أحسَّ بالشلل في رؤوس الأصابع وهي تضغط على رمانة الكتف . طفل يحاول أن يحمي أماً من أب متوحش ينهال ضرباً . هي كانت تحت اللكمات والدوس والصفعات ، وهو يحاول أن يحمي مايستطيع من هذا الجسد المنتهك . كان يدافع عن الروح وهو يضغطها إليه في محاولة يأس وهمية .

ـ إنني أكره هؤلاء الوحوش . أنت لست منهم مسيو ناجي .

من نافذة القطار ، وحقول البرتقال الأكثر اخضراراً تحت هذا الضحى في السهول الأفريقية ، سيتذكر كيف مضيا معاً إلىالنزل الذي تقيم فيه بولينا . بانسيون تديره عجوز اسبانية من أصل يهودي ، أجدادها الأوائل هربوا مع العرب من الاندلس في أعقاب

سقوط غرناطة ، وعودة بلاد الأسبان إلىأهلها الشرعيين ، كما أوضحت بولينا ، وهما في الطريق إلىالبانسيون .

وأشارت باقتضاب إلىأن أستير العجوز كانت متزوجة في إشبيلية من تاجر عربي ، أسرته اعتنقت المسيحية ، حفاظاً على تجارتها بعد هزيمة المسلمين والمذابح التي حدثت لهم وعمليات التهجير الجماعية .

ـ ولكن لماذا جاءت إلىهنا وهجرت أسبانيا ؟

يبدو أن زوجها كان يقيم علاقات مع نساء أخريات . مع الزمن أهملها وبدأ يعاملها بقسوة واحتقار . هي بطبيعتها بيوريتانية من النوع الطهراني . لم تطق حياتها معه خاصة بعد أن عرفت أنه يأتي بعشيقاته إلىبيتها ويرغمها على تكريمهن واحترامهن ، مخترعاً أكاذيب من نوع أنهن عميلات تجاريات وصديقات عمل . في مابعد طلبت الطلاق وهاجرت إلىهنا .

ـ هل تكره العرب جرَّاء ماجرى لها ؟

ـ أبداً . بل تعتقد أن بين أجدادها المهاجرين صلة قربى حميمة مع العرب وهي تحنُّ بشوق إلىذلك الزمن القديم .

وهما يدخلان إلىصالون البانسيون عرَّفتها مزاحاً : هالو . ماما . صديقي فيديريكو نسيبك من غرناطة الأندلس التي كانت عربية .

رحَّبت العجوز ببشاشة : أهلاً بولي . أهلاً مسيو فيديريكو .

في الصالة الواسعة ، المفروشة بسجاد ناصل ، وهما على أريكة قديمة ، بنية اللون ، أسرّ لبولينا بأنه مصدّع ويحتاج قهوة مرَّة .

نادت خادمة البانسيون : قهوة بلا سكر . بسرعة .

كانت العجوز تجهز أركيلة آخر المساء ، غارقة بجسدها المترهل داخل ثوب النوم الطويل الأرجواني الأنيق . أنيسة ، تحمل ملامحها بهاء قديماً ، اندرس في أمواج الزمن .

مع القهوة أوضحت بولينا ، في أعقاب أسئلة طرحتها العجوز ، بأن صديقها عربي من بلاد الشرق اسمه ناجي العبد الله ، ويعمل هنا في التوكيلات البحرية ، وهو هارب من الحرب الأهلية ، لكنه يحبّ أسبانيا والشاعر الغرناطي غارسيا لوركا .

ـ غارسيا لوركا ؟ سألت العجوز وهي شبه سادرة .

ـ اغتاله حرس فرانكو لأنه يحب الحرية ويكره الطغاة . أوضح كأنما يحدث نفسه . بدت العجوز ، تحت موجات دخان النرجيلة ، نائية وغائبة ، لاتفقه شيئاً من هذه الإشارات السنسكريتية .

قالت محسورة : آه . ذلك الزمن كم نحن بعيدون عنه الآن !

ثم أردفت وهي تجمع ثوبها ، الذي انحسر ، فوق ركبتيها : يالمجد ذلك الزمن في الأندلس الحبيبة !

كان مُربكاً ، وهو يحاذي بولينا ، مضطرباً ، ونائياً . وخلال برهة خاطفة ، بدا فائضاً ، وشبه طفيلي . تابع أو مُلحق أو منوّم . أغوته امرأة بقوتها السحرية ، في لحظة ضعف ، وغياب ، ورمت به هنا في هذا النزل الغريب . وسألت الروح المنفية في غياهبها وصحارى التشرّد : ولكن ما الذي أتيت تفعله هنا ؟

كم بدا صعباً تماسك ذرات الرأس التي نثرتها الخمرة ، رغم جرعات القهوة المرَّة التي لم توقف الصداع . كانت الإيماضات تلمع في سماوات بعيدة وفي فضائها الهلامي ، الكئيب ، راح يتناثر . وبدت اللوحات الجدارية للنزل ، والمدفأة الحطبية المشعة في زاوية جدار الصالون ، والأرض المغطاة بالسجاد الناصل القديم ، كأنما تقذفه نحو أزمنة موغلة في القدم . هو الآن ، بقوة طاقة داخلية يركز لاستعادة ظلال ملامحها .

تحت هذا الموج السحري ، بدا كأن البانسيون ليس غريباً عليه . لابدَّ أنه عبر فيه أو رآه في حلم أو تخيله في غياهبه . لكن هذه العجوز ، التي كانت كوردة الفلّ في غابر الأزمنة ، ياإله

البحار ، لكم تغَّيرت ، وتهدمت ، ومزَّقها الزمن الموحش . لماذا حدث ذلك ؟ كم من الوقت عبر وكم من الآلام واستغاثات الروح ولا جدوى من الهلاك !

وسألت الروح وهي تطير عبر انهدامات الوعي المفكك : أتكون للإنسان حياتان . إحداهما الحقيقة والأخرى الظلّ ؟

وحيداً ، كان مرمى في دارة ظليلية ، نصفها معتم ، والآخر شبه مُنار . فجوة في دوَّرات البحر ، يغرق ثم يطفو داخل هذا اللجّ الذي هوى بغتة فيه .

كان يركض بقوة ، كأنما يطير ، عبر المدينة . الموسيقى في رأسه ، والمدينة تدوي بأعراس موتها . موسيقى الوداع والزمن الضائع ، والأمل المهشم . تحت دويّ المدافع وهدير الطائرات وقذائف طوربيدات البحر . وسأل ، وهو عابر في ضباب الزمن المستعاد ، عن صديقه ، نزيل البانسيون . فقالت المرأة : مع الفجر أخذوه .

وتابع الركض بطاقة لامحدودة ، طائراً في الهواء ، باتجاه البحر وسمع وهو في خفقان الريح صوت بكاء دميانة : ها أنت تهجرنا وترحل لأنك جبان وعاجز .

كانت الطلقات تثقب المدينة ، والأرض تحت قدميه تنهار ، وفتاة النهر مهتوكة الجسد تطفو على سطح المياه . تنوح مع شجر الغَرَب : لماذا فتحتَ المدينة للقَتَلة ؟

هما الآن عاريان تحت الضوء البرتقالي . همست بولينا : لقد اغتسلت جيداً من أدرانهم وأنت ساهم .

داخل ربع الوعي المهتزّ ، سمع نثارات من ثرثرات المرأة وهي تشكو حياتها الفاسدة وتوقها إلىالحب النقي والحقيقي . الجسد والروح وهما يتألقان في وهج الجنس . لابد أنها حكت عن المرأة المومس (التي لاتريد أن تكونها في هذه الليلة معه) والتي اعتادت إيقاعاً واحداً ، مبتذلاً وهي مع الآخر في السرير . الأنثى الكاذبة .

كذب في اللباس والماكياج والحركات والابتسامات والعناق . تراوغ حتى في الشهوة والأنين المزيف ، بين ساقي رجل مزيف ، ممقوت ، لزج ، يهدر في النهاية كثور ويلتصق كسرطان ، ثم يتدلى كحيوان رخوي في فجوة صخرة .

بدا الزمن هلامياً ، يتموج كغلالة شفافة ، وهو داخله وداخل بولينا ـ دميانة وقد استوتا عاريتين وامتزجتا في هذا الألق الليلي الساحر . ولأن ثرثرات المرأة ، رغم شفافيتها المثقلة بالانتهاك اللاإنساني ولزوجة الأيام ، بدت مضجرة ، اخترق جسدها الناعم ، الحريري كما لو كان مسرنماً يدخل في سحابة . ما سَيُوعى في النهارات القادمة ، كان جسد دميانة المُشتهى والمحرَّم .

ستروي امرأة ما ، دميانة ربما ، بعد عودته من العاصمة في أواخر الليل إلىالبلدة ، وهو على حافة الموت سكراً ، أنها سمعت نواحاً على باب البيت ، مالبث أن تصاعد إلىنشيج وصرخات .

كان يهذي وأنا ارفعه عن الأرض لأدخل به الغرفة خوف الفضيحة واستيقاظ زوجي . بدا كالخرقة المثقلة وهو يتجرجر من العتبة الى حافة السرير : أنا لا شيء دميانة . أنت التي كنتِ مدار الزمن آنَ كانت المدينة . . . دعينا هنا في هذه البرودة . . وقلت لنصل الى السرير . هناك ترتاح . مليون قرن مرَّ قبل أن أوصله إلىالفراش . كم بدا مهدَّماً وفراغياً وهو مسجى على حافة الهلاك .

ـ بولينا تقرؤك السلام .

تحت ظلال حمَّى الهذيانات عن المدينة التي قصفت وزُلزلت أساساتها سألني إن كان جباناً ووغداً . وقلت أنت متعب والعالم قاسٍ وأنا أحبك في هذا الوقت الصعب .

وروى ، بعيداً عني وأنا لا أفقه عما يروي ، كيف كان يهرب بهم تحت القصف وهم متوارون في حقيبة جلدية صفراء على درج القبو المعتم والرطب والفائح بالروائح العطنة والقاذورات .

ـ ماكان هناك ماء ولا طعام ولا أنوار . أنت دميانة هل أكلت

خبزاً جافاً من القمامة ينغل بالدود الأبيض ؟

كنت أسنده على ذراعي ، وهو ممدد قربي ، وكأن القسم الأسفل من جسده قد شلّ . خفقان خافت في صدره ، عيناه نصف المغمضتين ساهمتان في السقف . عندما لايتكلم بلا أية ضوابط ، يئن ويزفر ، حينذاك أشعر أنه مازال حياً . ماكنت أفهم رموزه وإشاراته سوى أنه يسترجع تهاويم من زمن الحرب .

ـ كانوا هناك . بل هنا في القلب . وضغط على صدره بكفّ واهنة .

ـ ثلاث هجمات ليلية على البيت الذي تعرفينه . أتذكرين البيت المقصوف والمطّوق بالدبابات الإسرائيلية . أجل دميانة بيت الرملة البيضاء الذي عشنا فيه معاً . ثلاث غارات لأنقذ مهيار وآسيا ومهدي وفلة وخالد أحمد زكي والإيزرجاوي وحمدان القرمطي وسبارتاكوس وبشير حاج علي ، المحاصرين .

كانوا هناك تحت القصف الجوي والبرّي والبحري . وهو يركض عبر المدينة في فضاء الغبار والبارود وروائح الموت والحطام . والدنيا جوع وخوف وعطش ودماء وحصار .

آه . يالهول القيامة . دميانة كيف نجونا ؟ اين أنا الآن ؟ وأين هم ؟ أشلاء الزمن ـ الضحايا . الهاربون . والذين غالبوا العدو ـ الوحش وتصدّوا وقاوموا ثمانية وثمانين يوماً كما في طروادة وستالينغراد . والعرب ، نفايات النفط ، وسلالات العار . الجراثيم والطفيليات ، ينتشون برائحة الدم ورائحة الجثث وهم يقصفون ويعربدون في الشيراتونات والميريديانات مع السكوتش والعاهرات وموائد القمار في أعراس موتنا .

وسألني ، وهو يستعيد أهوال الحرب ، إن كنت قد شربت مياه البواليع ومايقطر من جدار المنور المرحاضي .

وقلت أنت متعب ياعزيزي . حاول أن تنام . وقال بأن الدنيا ثلج . ظلّي قربي . . سأموت . . ادفئيني دميانة . . الروح تصعد .

عبثاً بدا إيقاف هذه الهذيانات ، ومستحيل أن ينام . كان مستثاراً .

ـ سأهيء لك قهوة . قلت وأنا انهض .

وصرخ بي محاولاً النهوض : تعالي . وإذ اقتربت طوقني بحنان وما تبقى في جسده من قوة : أنت من سلالتهم . سلالة الانقراض والضحايا . النسل الجرثومي المنذور للشقاء والموت .

ـ نحن أحياء ياحبيبي وبإمكاننا قهر الموت والشقاء بالحب .

ـ أنت تعيسة وأنا رجل هالك من بداية التكوين . هذا الزمان ليس زماننا . نحن في حصار الزمن الرعوي والجِمال مهتاجة برائحة الدم . الرعاة . البدو . الأجلاف . هم سادة هذا الزمن .

وأنا أدلف إلىالمطبخ لإعداد القهوة قال بأن عليَّ أن أهيء قهوة بماء الزئبق وبول المراحيض والدود الأبيض والنفط . قهوة عسلية يادميانة لها رائحة كرائحتك ورائحة بولينا وأنتما خارجتان من الحمَّام والماء الحار يقطر عنبراً من شعر العانة . دميانة هل أنت حليقة شعر الكهف ؟ أعني كم مرة تموتين وأنت تحت اغتصاب الرجل وهو يطعنك بسكينه الدامية !

واضح أنه كان يجتاز نوبة من نوبات الشتات غير الواعي . كان منتثراً داخل ظلمات تجتاحه بروق ورعود وأعاصير . وهو هناك غريق بعد أن تحطمت سفينته ووحيداً كان يصارع الموج والأنواء .

لم يشرب القهوة . ذبلت عيناه وتهدَّل وجهه الأصفر . خيل إليَّ أنه سيموت الليلة . وأنا أحاول نزع حذائه وإزاحة جسده لأغطيه باللحاف داهمته الحمَّى وراح جسده يرتعد .

ـ الموت . الموت . افتحوا الأبواب . آه . ياللظلمات . أين الشمس !

محزِنة تلك الليلة ومفجعة . لأول مرَّة أراه على ذلك النحو البائس . أي انهيار محطِّم للقلب . هو هنا وهناك ذاوٍ ومهدَّم كطفل

هوى في حفرة . يستغيث : لا أمل أبداً . ضيقة هذه السفن والبحر شديد الهيجان والظلمة حالكة .

الرجل الذي حلمت به في أوقات الشدَّة والزمن الخائب ، يستدير مفصولاً عني وعن العالم . يتهاوى كجثة في هذه الغرفة . يغزل شرنقة زمان قديم ويهلوس عن أشباح موتاه في قاع بئر الأفاعي ، كم يبدو هشاً وهو ملقى في هذا العراء البارد ! أهذا هو عشيقي القوي الذي حلمته يوم دخل البيت متوّجاً بهالة من غموض ، وحضور باهر تنبىء بهما عينان في وميضهما شراسة وحش جميل ؟ بارات العاصمة ومومساتها وهذيانات الموتى والمدن المحترقة . أية بلوى تضاف إلىأرشيف السيدة دميانة المبتلاة بهذه السعادة الجديدة !

هكذا وأنا على الكرسي متكئة على حافة السرير ، بين الحلم واليقظة تجتاحني تيارات هذا الرجل الغريب . رجل الظلال والسراب الذي هبط من كوكب بعيد مسحور .

وكنت أراها في الأغساق وقرارات الظلمات السحيقة . نجمة أو لؤلؤة تتوهج وتضيء فضاءات البحر العميقة وتخوم المسامّ . هي أو شبيهتها كانت حلم أسفاري قبل المذبحة . امرأة المدن البعيدة التي هويتها وعانقتها . أنثاي التي هجَسَتْ برائحتها أجنحةُ السفر وأنا طالب على مقاعد الدراسة . من أجلها كتبت أشعار الندى على أوراق العشب . توسدتُ ذراعها وانغمرتُ في سنابل شعرها الأسود تحت المطر قرب الشواطىء والموج يهسُّ فوق أقدامنا العارية . على ركبتيها بنيت بيوت الحصى وهمست لها : يقول الحصى الأبيض حبنا خالد كالبحر . حبنا لايموت .

هي ذي تطلع من رائحة الدم والخيانة والزمان الوغد . وأنا هنا عارٍ ومنتهك . منفرد بي في وقت صعب وذليل . وقت من قتل وجوع ورشوة وموت ضمير . وقت يلغ الوحش فيه دماء أهلي ، الأحياء في دمي . صورهم . إيقاعات أصواتهم . حشرجاتهم .

دماؤهم على الأرض والجدران والأبواب المثقوبة . وأنا الهارب على أجنحة طيور الثأر الصائحة في براري الليل : دمنا نارك الهادية في ليالي الظلمة . وأنا الآن ، في لحظة العسف والحصار ، اللاشيء العائم في الزمان الرخو والزمان الخانع . الزمان الذي تساوي فيه الأموات بالأحياء حيث لا صوت يصرخ ولا سيف يُشرع . وأنا أسأل عزلتي وعراءاتي قرب بوابات البحر : أهي قوة الوحش أم ضعفي ؟ موتهم أم غفوتي ؟ أم هو انعطاب الروح ؟

في تلك البرهة من التحلل الكيميائي لذرات الزمن ، والزوغان البشري ، فوجئت ، وأنا في الغفلة اللعينة للنسيان ، بهذه المرأة التي تخلى عنها الأمل . صدمتني وصدمتها وها نحن ننزف . هي وأنا وزوجها البائس كنا مطوقين داخل شبكة عنكبوت سامّ ، نسج خيوطه اللزجة من هيجان الشهوة ومرارة العجز ورائحة الموت ، والمصادفة التي لم تُعرف قوانينها بعد .

الرجل الهاوي في وهدة هذه الحمّى في بلاد بعيدة ، هو الذي يبدو بلا وطن والتائه في شعاب الأرض . حتى الآن لا أعرف حقيقته . من هو وأين ولد وكيف عاش ، والى أي بلاد هاجر . لعل الله وحده ، إن كان موجوداً ، يعرف هو وأنا إلى أين نسير في هذه المتاهة . ناجي العبد الله هذا اللغز الغامض ، القادم من بلاد الشرق العربي ، المدمرة بالحروب والقتل الأهلي ، والحامل في خلايا دمه وزر الجريمة البشعة التي يتوهم أنه سيثأر لها من القتلة . وأنا دميانة المدنسة والمعهَّرة بين الأهل والأخوة ، الفريسة السهلة لأنني أنثى في بلاد المسلمين ، من سيثأر لي ؟

كم تبدو الأشياء هلامية ومختلطة . فوضى شيطانية في سياق انحدار لا تُعرف قراراته . قال يوماً نحن ضحيتان على مرمى بندقية ، مصلوبان إلىجدار . ليتلُ من له كتابٌ صلاتهُ على نفسه وليسقط بسلام . يومذاك كان قلبي يخفق به ملاذاً ومنارة في ظلمة قلب توسمه سياجاً وزرق نجاة .

ـ ناجي العبد الله من أنت ؟

في لحظة يأس ، وأنا اسند رأسي على فخذه ، بين النوم واليقظة ، وهو موغل في ظلمات الحمَّى والهذيانات ، شاردة عن زوجي وابنتي ، ضاربة عرض الحائط بكل المواضعات ، منصهرة بألمه الروحي والعضوي ، انهمرت ، كبرق شيطاني ، رغبةُ قتله .

انسحبتِ المخدة وانغمر وجهه باللحاف ورأيتني بكامل قوتي أضغط عليه بالوسادة وأخنقه . إلىالجحيم أيها الرجل البائس أنت وموتاك وتاريخك وبروقك الكاذبة . أنت لست أكثر من شبح شيطاني أو فزاعة حقل أو كابوس اكتسحني في غفلة من السهوِ والغباء . هكذا يتساوى الرجال في هذه الهنيهة ويعودون إلىأرحام أمهاتهم .

«وأنا أنحدر كطوف مجوَّف فوق جروف الموت

أمسك بك كجذع يطفو في منحدر السيل»

كمن أصابه مسّ ، وصدى الأغنية يخرج من شعاب الروح ، تعرَّيت واندسست تحت اللحاف وعانقته . التففت بالجسد المرتعش البارد ، وبكل دفء الأنثى وحراراتها غمرته . ليكن موتنا معاً أو حياتنا . همست له وهو تحت رعد الصقيع : لن تموت . لسنا أمام جدار الرمي . حبُّنا أقوى منهم . خذ دمي وحرارتي وانجُ . كن قوياً كما كنت في أزمنة الأمل وضياءات البحر . ليكن حبنا صلباً كحصى الشواطىء ، لامعاً ومصقولاً تحت غروب الشمس .

هل كانت تلك الليلة ليلة القدر ؟ أم هي تجليات روح تأبّت على الموت ؟ أم أنها قوَّة غامضة من الطاقة والاشعاعات التي يمتلكها البشر في الأعماق غير المكتشفة للظلمات السرية ؟ أم أنها العزلة الصوفية وهي تكتنه الروح والجسد حيث ينمو الله والطبيعة معاً ويكون الكائن بينهما لغزاً مستعصياً على الوضوح ؟ لابد أن دميانة ، تلك الأنثى المصاغة من الله والطبيعة ، كانت مزيجاً من هذا كله في تلك الليلة المشعة .

في الأيام التي ستتلو تلك الليلة ، ستتبدى مباركة وقديسة ، بعد أن سهرت حتى مطلع الفجر قرب سريري ، ثم عارية ملتصقة بي . وستتجلى قداستها وتضحيتها وهي تواجه زوجها في الصباح وهو يصرخ في وجهها : أخيراً أيتها العاهرة لقد فعلتها .

ـ أنت في نظري لست أكثر من خنزير مقعد عديم الإحساس وعار من أي شعور انساني .

وفي ذلك الصباح الرمادي ، المليء بالشتائم وتحطيم الأثاث ، والصراخات ، وبكاء الطفلة التي جاءت الي وأنا مهدّم من الإعياء والصداع وانهيارات الجسد ، بدأت أهجس بالرحيل عن البيت .

* * *

هي ذي أشعة الفجر الرطبة تغطي السهول الخضر والهضاب الرمادية . في المقصورات ثمة جلبة كذلك في الممرات ، تختلط مع الإيقاع البطيء لصوت العربات . في رأسه ماكان الاستيقاظ متسقاً مع بزوغ الفجر ، وهذا الانهمار الذهبي لأشعة الشمس . كان مصدّعاً ، شبه مخدّر . ولكي يبدّد هذه الحالة العضوية اللعينة ، ويخرج من هذيانات الليل وكوابيسه ، وتداعيات الأزمنة الغابرة جرى نحو المغسلة . رشق وجهه بالماء ثم فرك صدغه والعينين وجلدة الرأس .

ـ لابد أنني كنت نائماً كأهل الكهف .

في مطعم القطار طلب قهوة مع الحليب . الرشفة الأولى ولّدت إحساساً بالنداوة . الثانية وهي تنحدر إلىالداخل أفعمته برائحة ثدي الأم . مع نهاية كأس الحليب الرمادي ارتاح الجسد .

وهو يدخن السيجارة الأولى اقترب النادل ليأخذ الكأس وينظف الطاولة الصغيرة .

ـ لابد أنه شيء محزن . قال النادل .

ـ ماهو ؟

ـ موت العجوز .

ـ هل ماتت ؟

وإذ سأله أين كان مساء البارحة . قال : كنت متعباً ونمت كالقتيل .

ـ قذفت المرأة بنفسها تحت عجلات القطار حزناً على طفلها . الآن هاهما يتساويان في الحياة والموت .

سحق السيجارة في المنفضة ونهض . في ممر القطار داهمه الغثيان . انعطف نحو المرحاض وأفرغ ما في جوفه تحت المغسلة . بين القهوة والحليب المُغثى رأى أمه وأباه وإخوته . كانوا هناك داخل الكتل والسيلانات والهلاميات الحامضة التي صعدت إلىأنفه ورأسه . دم أرجواني يأخذ شكل ديدان وأمخاط . خلالها ترى جثث قتلى تردم في مقابر جماعية . دوار القطار ودوار البحر ودوار السفر ودوار الموت في الرأس المصدّع ، نشر الروائح التي غطت السهب والسماء عاصفة بما تبقى من طاقة الجسد . من هناك نهضت امرأة بيضاء في نقاء الحليب وعذوبة الفجر ، رآها وهو يترنح تحت العصف : أنا أمك الميتة وسندك في أوقات الضيق . لاتنسني . طوقته بذراعيها الحنونين وجسد كريش الطيور : تذكَّر الدم البريء .

في رواق القطار المطلّ على السهب والهضاب الرمادية ، وهو قابض بأصابعه على الذراع الحديدي البارد ، والعالم أجوف كهاوية ، صرخت الروح المنفيَّة : ماالذي جنيت حتى أُبْتَلى ؟ ؟

كانت الرياح شرقية ، منعشة في ذلك الضحى البارد . وفوق السهول والأدوية بدا العالم يتأرجح مع الإيقاع الرتيب لعجلات القطار ، داخل كابوس مقبض للقلب .

تلك المرأة ، النائية الآن ، تتراءى بين السحب محطة للنسيان .

محطة عابرة في سياق سفر طويل لانهاية له سوى بالموت .

آنَ أوحى لها بفكرة الرحيل ، في أعقاب نقاهته ، تندَّت

عيناها . بدت وهي تتنهد كأنما روحها تصعد مع النهدة وهما يتواجهان على الديوان ، بينما بوران مستلقية على فخذها تداعب دبَّها الصغير .

ـ ولكن كيف تتركنا . هل بمستطاعك أن تكون قاسياً إلىهذا الحدّ ؟

ـ ليس الأمر هكذا .

ـ ماهو الموجب إذن لذلك ؟

ـ التدمير . هرباً من تدميرنا جميعاً . حتى بوران لن تغفر لي عندما تكبر .

ـ ولكنني على استعداد للتضحية من . . . قطع العبارة بصوت حاسم :

ـ نحن ضحايا زمن من العفن والخراء والدم الحيضي . ولدنا فيه عبثاً أو مصادفة أو قدراً . أنا وأنت لسنا مسؤولين عن هذا الخراب الشامل . لسنا أحراراً ولسنا بشراً . نحن في مصيدة للحيوانات داخل غابة . لماذا ينبغي أن أكرر هذه الأفكار التي يرفضها رأسك الأبله ؟

تحت صدمة الجملة الأخيرة هوى رأسها فوق الطفلة . ضمّتها بذراعين واهيتين ، وانهمر نشيج شجرة عصفت بها ريح .

تركت بوران لعبتها تهوي على الأرض وطوقت عنق الأم : ماما . ماما . هل أنت حزينة ؟ كان الشعر الأسود الطويل يغمر الطفلة ، وتنساب ذؤاباته على رقعة من الديوان المعرَّق بورود شقائق النعمان .

ـ أنا آسف دميانة . لم أقصد الإهانة .

وقالت تحت عاصفة النشيج والمهانة : إنني أستحق ذلك .

ـ لا . أبداً . المرارة والصدمة .

خطا نحوها . هو الآخر كان مجتاحاً بالمسّ الشبيه بإعصار بحر . جثا على الأرض وأخذها مع الطفلة وانغمروا تحت موج من

الحنوّ والغفران . التحام حميمي خافق ، ينزع نحو لمّ الشظايا .
حنين سري موشّى بالدمع والشوق إلى زمن ما قبل التحطيم ، يجرف
في سيله حطام الأزمنة الملوثة معيداً للروح نقاوتها الأولى .

زمن الغيرة

من أي كوكب ملعون هبط علينا هذا الغريب . قبل أن يأتي إلىبلدتنا كانت حياتي ودميانة رضية ، مستورة . الماضي دفنّاه في كهف الذاكرة . معاً تواطأنا لستر العائلة وهاجرنا من مدينتنا التي تبعد الآن خمسة أعوام . زمن النسيان والوقائع اليومية ، غطّى الفضيحة . هكذا تخيلنا ونحن نواصل حياتنا وقدرنا المكتوب . رسائل أخي من أسبانيا تتحدث عن نجاحه كمهندس في الألكترونيات . سيقيم هناك في برشلونة بعد أن تزوج ، وأنجبت زوجته طفلين . حالته المادية ممتازة وسيرسل إلينا قريباً مبلغاً يساعفنا فيه بعد أن علم بإصابتي . إنه يأمل أن نكون سعداء وأن يكون الماضي ـ الخطأ قد امّحى ليكون الحاضر ضوء المستقبل المزهر والسعيد . وفي جميع رسائله تحيات حارة لدميانة وبوران .

الرسالة الأخيرة وصلت منذ أسبوع ، وفيها يخبرني عن التحويل المالي باسم دميانة إلىالمصرف المركزي في العاصمة . إنه يقترح استغلال المبلغ في مشروع صغير أعمل فيه داخل البلدة : حانوت أو مكتبة قرطاسية لستر العائلة اقتصادياً ولتعبئة فراغي المضجر .

وأنا في هذا المناخ من ترميم حياتي وإعادة التوازن للأسرة ، فاجأني هذا المخلوق الذي لايعرف إلا الله من أين أتى وماذا يريد وما هو سرّه الخفي ؟

صخرة سقطت في بحيرة عكرت الهدوء . جرثوم غريب دخل في عصيات الدم . وحش يجثم فوق الصدر ، يؤرقني في اليقظة والأحلام كجذام يرعى الجسد والروح .

الاضطرام وابتهاج القلب . عودة الروح للمرأة الممتلكة والمجتاحة ، امرأة الشهوة ، أنثى الخيانة ، مستسيغة الحرام . كلبة مواسم السفاد التي تعهَّرت وهي طفلة في حجرات الرجال السرية . الغرف ـ المصائد . موسيقا ، ويسكي ، رقص ، فيديو أفلام السكس ، سجائر الحشيشة . غياب وذهول في عالم ملَّون مضطرم سابح داخل سحب وبحار بلون الغابات وأرجوان الدوران العاري على الأرض العارية داخل الجسد العاري .

عالم دميانة . فتاة مليلة ، سليلة أكاديميات الفساد المعاصر .

ـ أيتها البغيّ القديمة .

ـ أيها الكلب المقعد الوالغ في حيض فرج أخيك .

مدية في القلب أو طلقة في الفقرات . هكذا نتبادل الرشق . كم أبدو مهدَّماً ووضيعاً تحت هذه الأشباح والأخيلة التي تجتاحني . قلت لها آنَ كانت هناك معه : سأقتلك يوماً يادميانة .

ومن وراء الجدار . وأنا اسمع آهاتها الشهوية ، قالت لي : أيها العنين هاأنذا أتشفى منك . أنت عاجز عن قتل ذبابة .

عصور التسفيل والهتك والجحيم العائلي ، تهوي فوقي وأنا غير قادر على الوقوف على قدمي . وها أنذا أعاقب للمرة الثانية بهذا الوافد الجديد المرسل من قدر لا أعرف كنهه . ظلمات وغياهب . أتذكر الآن وجهها المشرق وهي تستقبله . غريب من بلاد الشرق يلوذ بنا . فقد أهله ووطنه في ظروف غامضة في أعقاب الحرب الأهلية التي اجتاحت لبنان كما روى لنا .

هكذا آويناه . فتحنا له البيت والقلب والأسرار وقلنا : البلدة بلدتك والأسرة أسرتك ونحن أهلك .

كانت دميانة مغتبطة بالرجل الغامض ، الحزين ، الصامت .

لابدَّ أنني نسيت أو دفنت الماضي الأسود ، ونحن في غمرة الابتهاج بهذا الوافد الوديع ، الباحث عن ملاذ .

كم بدا خجولاً منكسراً ، في ذلك الوقت الذي دخل فيه البيت . صديقنا المدرِّس السوري حسين القصار قدمه لنا في ذلك الغسق . فوجىء به في مقهى الأوريان وهو يشرب القهوة على الناصية المظللة بأشجار الدردار .

روى لنا المباغتة الغريبة لصديقه الذي التقاه عبر شوارع دمشق في أعقاب مذبحة أهوار العراق وما تلاها من أهوال ومذابح عمَّت بلاد العرب .

كان حزيناً ومنكسراً ومهدَّم الروح . وهو يرشف قهوته تقدمت منه : الله بالخير .

ـ عمت مساءً .

بدا مدثراً بالغربة كما سلحفاة في قوقعتها .

ـ إسمي حسين القصار .

خرج ناجي العبد الله من غياهبه وارتمينا في عناق حميم .

ـ ما الذي أتى بك إلىهذا الكوكب المنسي ؟

ـ الأهوال ياصاحبي .

ـ من تعرف هنا ؟

ـ لا أحد .

ونحن نرشف قهوتنا في المقهى تحت الشجر الأخضر حاولت استشفاف أسباب هبوطه هذه البلدة النائية ، غير أنه بدا منهكاً وصامتاً . ما قاله في تلك الأمسية انه متعب من الفنادق ويريد غرفة تؤويه وفي مابعد نتحدث عن الأشياء .

وفي تلك الليلة قدمه لنا حسين القصار صديقاً حميماً بلا وطن ولا أهل .

ـ عليك اللعنة يا أيها القصار ياسبب البلوى .

لابد أنه كذب حتى على صديقه في ماروواه له عن أحداث مدينته وتدميرها وإبادة أهله . هذا مايقوله الآخرون ممن عرفوه هنا ، وسهروا معه في بارات العاصمة والمواخير السرية .

عندما واجهت دميانة بحقيقته الملتبسة وتقمصه إهاب الرجل المظلوم والمطارد ، نبَّت في وجهي : من أين تأتي بهذه الهراءات !

ـ ليس أكثر من متشرد وصعلوك أفَّاق هبط علينا من بلاد الشرق الخائب . هذه هي الحقيقة ياامرأة .

ـ أنت لاتثق بصديقنا القصَّار إذن !

ـ أبداً . أنا أثق به . لكنه مخدوع . لايعرف حقيقة هذا الرجل .

ـ ماهي أسباب هجرة هذا الرجل إذن ؟ سألتني دميانة ساخرة من خراقتي ، ومدركة في الأفق الداخلي للأمر أنني اعيش حالة مضطرمة وجحيمية مليئة بكراهية هذا المخلوق الذي عكَّر بحيرة روحي وطمأنينتي العائلية .

ـ لا بد انه رجل مطلوب في بلاده بجريمة أو سرقة أموال أو عمل سياسي معادٍ لبلاده . أجبتها وأنا غير موقن مما قلت ، كمن يطلق طلقة طائشة في غابة ليبدّد خوفه الداخلي خشية مداهمة وحش .

وأضفت في محاولة إقناع شبه يائسة : وإلا مامعنى هذه العزلة والذهاب اسبوعياً إلىالعاصمة . ثم من أين له المال وهو عاطل عن العمل منذ وصوله حتى الآن ؟

ـ بعد هذه التحليلات والأخيلة والاتهامات الخرقاء . إلىاين يتجه قطارك ؟

ـ قطاري !

ـ أعني هدفك . أفصح بلا لفّ ولا دوران عمَّا في دخيلتك .

أن يخرج هذا الأفَّاق من حياتنا . قلتها في سرَّي ولم أجرؤ على الإفصاح عنها في وجه امرأتي لأن ثمن هذه العبارة فادح وانا من سيدفع .

ما عاد خافياً إعجابها به وافتتانها بشخصيته السحرية . وانا أحترق كديّوث وقوّاد عاجز عن أي فعل رادع ، راقبت الحالة منذ الأسبوع الأول . ثم عبر الشهور التي مرَّت ونحن في الجبل أو على الشواطىء وفي البيت . لا الرجل ولا الله ولا أي قوة في العالم تستطيع ردع امرأة قررت الانحراف نحو رجل آخر ، فكيف بدميانة فتاة السفاد والفساد معاً مذ كانت في الرابعة عشرة .

وأنا أوشك على الصرخة بعبارة الطرد ، أتملى وجهها الوردي النضر . جسدها العاري الفوَّاح والحريري وهو يتململ بين ذراعي وجسدي قبل أعوام الإصابة . ليالي الشهوة والشبق وصرخاتها وهي تئن في ذروة الرعشة : آه . آه . الموت . الموت . دفق من الجنون الهائج والروائح والهذيان . امتداد لانهائي لظلمات حدودها هاويةٌ من صقيع قاتل .

دميانة أنثى الخصوبة والدفق الحيواني والدم الحارّ أبداً . عاشقة الرجال وقاتلتهم . الأنثى الأفريقية التي لاتعرف الارتواء . هي ذي رياحها الاستوائية تهبُّ باتجاه رجل غريب .

امرأة الطاقة العارمة في مواجهة الرجل المشلول . هكذا أتهدم تحت حمَّى هذه الهذيانات . مطارد باللعنة الإبليسية داخل مغارة مرصودة في أعماق رحِمٍ صُلبتُ إليجداره المقدس والمنهتك في اعتكار الزمن . ولأنني لمْ أَبُح ولم أُفصح عن رغبتي في طرده ، هزئتْ مني . غمرتني بنظرة احتقار وهي تنسحب مع ابنتها نحو غرفة النوم . شعاع احتقار عينيها رشقني بعبارة كالسهم في القلب : أنت أيها الديّوث العاجز !

ليالي الأرق الممضة والأفاعي التي تنهش الأحشاء ، بعد أن تنسلّ إليه في ليالي الشبق ، وأنا وحيد منفرد بي في الظلمة والجسد أشلّ في صقيعه ، كنت أتحول إلى مايشبه دودة أو حشرة تدبّ في مجرى بالوعة .

ـ أنت أيتها الطفلة السِّفاح لابدَّ أن تموتي .

التعويض الوحيد للعجز . الثأر من تاريخ موروث ، كانا يرفعان نبض الدم نحو الخلاص الأخير وغسل العار .

وأنا قرب سرير بوران ، ودميانة في سرير ناجي العبد الله ، والموت والجنس إلها هذا الليل القاسي ، ويداي تمتدان نحو عنق الطفلة النائمة ، دوّى صوت انفجار هائل لا أدري من اين جاء .

ـ أيُّها المجرم البهيم .

صوتها أم صوت أخي أم صوت الضمير ؟ أم صرخة بوران التي استيقظت مذعورة ؟ كنت أختنق وأغوص داخل هذا الكرسي ـ القبر . وخلال انصباب العرق الذي كنت أسبح فيه جاءت طيور جارحة بلون الدم وحملتني عالياً فوق بحار غريبة . بحار دامسة مليئة بالأقراش والدلافين والحيتان . حلقت عالياً ثم هوت بي إلىأعماق المحيط .

إنني أغوص وأتلاشى في ظلمة هذه المحيطات . عارٍ وأعزل ووليمة لهوام البحر . صرختُ بأقصى مأستطيع ، وما كنت أملك سوى هذه الصرخة ، وأنا أحاول اقتحام الأبواب المغلقة وتحطيم الأثاث للخروج من أعماق ظلمتي ومهانتي .

ـ ماالذي جنيت كي أُبتلى وأُحطَّم . ياإلهي خذ بيدي إن كنت رحيماً . أنقذني من هذا الشيطان .

إثر انفجار روحي وارتطام جسدي ورأسي بالجدار ، وفي أعقاب الصرخة ، هُرعتْ زوجتي . رأتني مدمًى الرأس في حالة غياب عن الوعي . نَدَهت ناجي العبد الله : عبد الرحمن في خطر .

هي وهو أسعفاني وضمدا الجرح وسهرا قرب سريري حتى الفجر .

بعد أسبوع من إبلالي من صدمة الكابوس ، وأنا في بحيرة الهدوء والتأمل ، تساءلت إن كنت أقترب من حافة الجنون ؟ ولماذا رأسي يدوي بهذه الطبول والهذيانات ؟ وهل طريق الانهيار والانحطاط يوصل الى الجريمة ؟ أتراني أستحق هذه المهانات

لأنني ، كما قالت تلك المرأة ، حاولت تنظيف الغسيل الوسخ ، ولعقت ككلب عقور إناء الحيض ؟

كل من في هذا القطار نام بعد أن تحرروا من كابوس العجوز وحفيدها . هدوء جنائزي يرين ، سوى من هذه الإيقاعات الرتيبة للعجلات : ترك . ترك . ترك . ترك .

اثنان يقظان في هذا الوقت السرّي ، غير قادرين على النوم لأن الحكاية لم تُختتم بعد . وشهرزاد لم يدركها الصباح . صباح الصمت .

الرجلان المغدوران ، المصابان ، واللذان لا أمل لهما في عصر الحطام والرماد .

عبد الرحمن التاجي ، وناجي العبد الله ، وهما يصطدمان خطأ بدميانة على الشواطىء التي تغرب في أفقها الشمس ولا تشرق .

امرأة الغواية والمسرات العابرة التي تنسي حليب الأم ، وهي تضمك وتلتمّ عليك بقوّة الأنثى الحميمة وأنت في الغربة التي تهشِّم كريستال الروح حاملاً دم الضحايا فوق أمواج الهجرات .

هي ذي تتحرك في أرجاء البيت . ترتب وتنظف وتمسح وتدخل المطبخ لتهيء الطعام .

أرسلت بوران إلىغرفة الغريب مقدمة لمجيئها في مابعد .

بعد أن تنجز عملها الصباحي كامرأة بلا وظيفة ، تدخل غرفة النوم . تنضو ثوبها المنزلي وترتدي الثوب البنفسجي المعرَّق بورود المارغريت البيضاء ، ورودها ، بل ورودهما المفضلة . الثوب المفتوح الصدر حتى أرومة الثديين . (وأنا أتذكر انهمار رأسي ووجهي بين نهديها ونحن في حمّى عُرينا اللاهب قبل إصابتي ، تعروني حالة تدميرية . رغبة سرية في قتلها وحرقها وذر رمادها في مياه المحيط) أيكون هذا الاستعراض نتيجة منطقية لعضوية الجسد المعطوب وهو يواجه الجسد القوي ؟ إنها تخطو واثقة بكمالها ، وأبهة جسد صلب منحوت من غرانيت الشهوة

الوحشية . شعر أسود طويل مسرَّح وعطر ، منسدل حتى الخصر . عينا بقرة وحشية يلمع في وميضهما الحنان والقسوة والدفء والمكر الجميل . شفتان بلون الشفق كلما امتُصَّتا ازدادتا توردأ والتهاباً ونداءً لغلمة الجسد .

هي الآن تعبر الممرات والجدران والشوارع والشطآن ، تخطو فوق جثث الضحايا والمدن المحترقة والبلدان الغارقة في وحل العار والجوع وسطوة الوحش ، حاملة هذا الجسد النبيل والملوث ، وليمة للرجل الغريب .

قبله أولَمَ أخي فيه . أنا عبدته في سنوات النسيان . آنَ كنت ألج إلىذلك الكهف الحميم ، المقدس ، كنت أتلاشى كصوفي يتجلى له الله في الخلوة ـ العراء ، وفيه أتوحد ومعه أندمج . كان حياتي وموتي .

ـ دعيني هنا إلىالأبد دميانة . منه ولدت وإليه أعود .

عبر هذه الفتوحات ، ظل ذلك السيد ـ الجسد ، متماسكاً ، صلباً وطاغياً ، دافقاً بقوة خلقه . ملاذاً ومعبوداً كاللات والعزَّى . واحة من الخضرة والماء والظل في الصحراء . ولكن من أين تأتي هذه الاضطرابات ؟ كيف تولدت ومن أين انبثقت ؟ لابد أنها كانت متوارية في الظل والظلمة العميقة . تصعد الآن وتصدمني في وقت الضعف ، تتكاثف مع هذا العجز العضوي والروحي ، حيث لا أستطيع أن أفعل ما ينبغي أن يُفعل في الوقت الآخر ، إذ كان بإمكاني لا أن أصرخ فقط ، بل أن أضرب بقوة الجسد والروح : هذا لن يكون إلا على جثتي !

ـ إلى متى ستظل حاملاً جثث موتاك على كتفيك . لقد انتهى زمن وبدأ زمن آخر . حدّقْ جيداً في أعماق المرايا .

بعد النقاهة قالت هذه العبارة وهي تنتظر ردَّة الفعل المستفزة ، قرب السرير .

ـ ولكن مامعنى الزمن الآخر ؟

ـ أن يتغير الانسان من الداخل .

ـ حتى الآن لم أفهم ماتعنين .

ـ عنيت التكيف مع المحيط والبشر . إلامَ ستبقى هكذا في عزلة الذئب ؟ كما الندَّابات فوق الأضرحة تنده طيور الثأر وأنت في العراء . هل سألت إن كنت وحدك تستطيع أن تفعل شيئاً بعد أن أوغل الآخرون في صحارى النسيان وتحولوا مع مدارات الريح . لماذا يكون عليك أن تدفع الثمن منفرداً ؟

بدا الحوار في ذلك الضحى مأساوياً في لحظة ، ومضجراً في آن . هبط الصمت . ماكان بعيداً عن الحقيقة كلام دميانة . غير أن مالم يُقل في تلك البرهة كان شيئاً آخر لاصلة له بما رمت إليه في النتيجة . هي لم تسأله في ذلك الوقت ولكنه سأل نفسه على نحو مليودرامي بائس : ما الذي أتيت من أجله إلىهذه البلاد ؟

ومع أن السؤال كان يمكن أن يُصاغ بشكل وجودي آخر : لماذا ولدت في هذا العالم ؟ إلا أن حضور دميانة الخصب ، والماء الذي يغذي الجذر الضامر ، الموشك على الهلاك ، كتم السؤال في ظلمة النفس .

هكذا وأنا قرب النافذة البحرية ، والطيور البيضاء تخـ[illegible] في الفضاء ، داخل هذا الكرسي المصمت ، غارق في بحيرة أحزاني وشللي ، أتساءل : من أية مادة مسمومة أو نبتة شيطانية صيغت هذه المرأة ؟ بل أية نزعة سادية تتقمصها وهي ترتكب جهاراً هذا الشر دونما أية ظلال لحسّ التأنيب وهي تبيح جسدها لغريب ينتهكه على مسافة جدار من مخدعنا الشرعي ؟

في المرايا المنكسرة ربما تبدو الأمور مختلطة حول منشأ هذا الشر . أهو متأصل في جذور طبيعتها ؟ أم لعنة جسد خلاياه مسممة بالشبق كما في عالم النباتات السامة ، أم أنه ميراث تناسل من دم الأسلاف ؟ أو هو ردَّة فعل لما جرى لهذا الجسد من إهانات ووطء وتدنيس ؟

إذ يتقدم الشرّ الآخر ، على شكل أمواج ونافورات أرجوانية وهي تلمع على شاشة الثأر ، صارخة : لِتَمُتْ هذه العاهرة . تقبل أمسياتنا القديمة في مليلة وهنا على شواطىء المحيط . أعراسنا المتوالية في الليالي المقمرة والدامسة . كيف بدأنا كما الموج الذي يمحو آثار الخطى القديمة الآثمة . ها نحن ننسج حياة جديدة ، عارمة بالحب والحنان والنزهات وتأثيث البيت ، وحضور حفلات المسرح والسينما ، والزيارات العائلية للجيران والأصدقاء .

متاهة من النسيان والغفران المتواطىء .

تحت ظلال هذا الغفران ، والانغماس في ثنايا ازدهار جسد يتألق كجحيم عذب ، كان الزمان يتجدد في خلاياي . مليون رشق نيزكي ، وهي عارية بين أحضاني ، كان يشع من إيقاع حركاتها ومداعباتها وأوضاعها الشهوية . هناك في اللجّ ، في اضطراب البحر ، كنت أتلوى زائغاً كسمكة منحدرة في مياه ملونة وأزهار المرجان .

- أيتها المرأة الساحرة أنا أعبدك كما الله ! ولكن الزمان الرضي ، الرائق ، لماذا وكيف اعتكر ؟

بدا السؤال عالقاً في فراغ . وما كان هناك من جواب دقيق يحدد جوهر الأشياء التي اعتكرت . جميعنا كنَّا تحت ضربة الكابوس وفي غمرة اضطراب البحر .

جاهدة أحاول إزاحة هذا الضباب الذي يغشاني كي أرى ، لكنه كان هناك أبداً في الظليل . وكلما تقدمت خطوات في فضاء هذه السحب تتقدم في مواجهتي سحب أكثر كثافة . ذهوله ، شروده ، صمته المحايد ، يرميني في الغربة والتنائي عنه . كيف يستطيع الانسان أن يكون ملتهباً وجامحاً كعصف النار تحت الريح ، ثم يتحول بارداً كجدار شتائي في لحظة أخرى ؟ !

لابد أنني امرأة ممسوسة بسحر أو لعنة خرافية . كيف استوطنني هذا الغريب كما يستوطن الجسد فيروس يسري في الدم ؟

آنَ تتمور الشهوة نحوه ويبدأ جسدي هيجانه أسحبه من صقيعه الشتائي ونرحل معاً نحو بلاد حلمتُ بها إبَّان سنوات التفتح الأولى . نمضي معاً إلىجزر بعيدة خضراء وغير مأنوسة . رجل الحلم ، القوي ،المغامر الخارج على القوانين والأعراف . اللامبالي بكل حدود العالم ، والجارح لما هو مقدَّس وأخلاقي . سوية نطير في فضاءات زرقاء . وحيدان كما طائرين انفلتا من عقال الزمن ومرمى الطلقات .

بعيداً أكثر فأكثر عن الأراضي الملوثة ووحوش الدم وبلاد الظلمات .

آه . يالأحلام اليقظة كم تبدو جميلة وزاهية ، كما هي تعيسة في خيباتها .

* * *

هكذا إذن وحتى لاننسى لابد من التذكير بأنها حكاية عن الأمل والشوق والرغبة الكامنة ، كما هي في الآن نفسه حكاية عن الموت والثأر والخيانة والغيرة التي تفتك بالخلايا وتفسد بلازما الدم .

توق لاهف لحب لايتحقق ، سيظل محمولاً في الذاكرة مادام الدم ينبض والذاكرة تستعيد .

ماكان الدافع الأخلاقي هو الرادع في أعماق ناجي العبد الله وهو يصطدم ، في هذه الظلمة اللانهائية ، بدميانة ، امرأة الجسد الحزين والروح المنكسرة .

وكما كان عبد الرحمن التاجي فريسة استيهامات الغيرة ، والمخيلة الجهنمية حول ليالي الخيانة والشهوة والغدر ، كان ناجي العبد الله فريسة الذكرى وتموجات الموت ورسم الخطط الفراغية للثأر من قاتلي أهله الذين ذُبحوا هناك وهم أبرياء .

وفي الوقت الذي كانت فيه تلك المرأة تتحدث عن النسيان والتعويض ، عارضة حبَّها فدية وجسدها تطهيراً للدم المسفوح ، كان الرجل الغريب ، المرمى في منفاه ، يكافح في وجه المقايضة

والتعويض المتواطىء .

كذلك تأتي الذكرى في هذا القطار الغريب ، في الزمان الغريب ، وهو متكىء على حافة النافذة ، والمساء في الخارج بارد وعذب ، لكنه متشح بحالة قفر ووحشة .

من خلال ضوء بعيد ، ورائحة تتموج من البراري النائية والمقفرة ، يأتي صوت أبيه قبل تدثره بدمه وكتابه المقدس في تلك الليلة الوحشية : إذا تغرَّبت يوماً لاتنسَ الحنين . هنا بلادك وأهلك وجذرك العميق . التدمير سهل وشيطاني لكن التأسيس والعودة إلىالأصل هو الرحماني الذي يحبّه الله ويرضى عنه .

كان الحوار في ذلك الوقت يجري بينهما حول فكرة رحيله إلىفرنسا لإكمال دراسته الجامعية في السوربون . بدا الأمر حلماً زاهياً وتوقاً يرنّ أبداً في رأس ناجي العبد الله ، من أجله اختصم مع الفتاة التي أحبَّها . ثم قتلت على ذلك النحو البشع ، كما اختصم مع أبيه المتزمت ، الرجل الذي لايرى في الغرب سوى العداء للعرب والإسلام منذ الحروب الصليبية .

ـ أنت ولد مخرَّب بالأفكار الهدَّامة والسموم المستوردة . كان يقول له . ويضيف : ينبغي أن ترسّخ في عقلك أن الشرق والإسلام هما ينبوع الحضارة . نحن الأصل ياولدي ياناجي . من هنا شعَّ [illegible] على العالم عندما كان الغرب سادراً في عصور الظلمات . ولم يقل لأبيه . كان ذلك قبل [illegible] قرون . بل أوضح بهدوء : إنني أعرف ذلك ولكن العالم تغيَّر ياأبي . علينا أن [illegible] الحنين إلىالأزمنة البائدة . نحن بحاجة إلىحضارة جديدة مغايرة . هذا ماأعتقده .

وبينهما كان الجدال يحتدم أحياناً حتى يصل حدود التهديد بالطرد من البيت ، والتلويح بنزع الاعتراف به ولداً ضالاً خارجاً عن الطاعة : لابدَّ أن السيِّد خالك المحترم خرَّبك أيها الولد الآبق . وإلا من أين تأتيك هذه الأفكار الغريبة ! وآنَ كانت الأمور تصل هذه الحدود ، كان يرحل إلىالعاصمة حيث يمضي في بيت خاله رياض

أسبوعاً أو أكثر حتى تأتي الأم وتتوسل إليه العودة الى البيت .

كان الخال رجلاً مستنيراً يقرأ الأدب والسياسة والعلوم . مهندس مدني زار أوروبا أكثر من مرَّة ، وحاول الحصول على الدكتوراه ، ولكنه اعتُقل وأُودع السجن وعُذِّب فخرج مشوَّهاً بعد ثماني سنوات من سجنه ، وهو الذي أوحى لابن أخته بضرورة إتمام دراسته في الخارج .

كان يقول لأخته : اسمعي . هذا البيت هو البيت الثاني لناجي . وأنا بمثابة والده . خلال فترة قصيرة سيكون لديه عمل . وسيرحل في ما بعد ليتمّ دراسته بعيداً عن أفكار ذلك البطرك المتخلف .

وإذ كانت تلك الأم تضرع بروحها التوفيقية ، مكابدة في سبيل توازن العائلة واستقامتها والخوف من تفككها ، كان ذلك الخال ، الذي صمد في الزنزانات كل تلك السنين تحت التعذيب واللسع الكهربائي ، يحاول إيضاح الأمور لأخته حول اختلاف الأبناء عن الآباء في الوقت الراهن .

ـ أبوه ياأختي مقيم في العصور الوسطى . خلايا عقله يحتلها الله والنبي والخليفة والشرطي ورب الأسرة . ناجي ليس طفلاً يؤمر فيطيع . انظري إليه كيف نما وصار شاباً . نال الثانوية بدرجة جيدة . عقله مفتوح على العالم والعلم هدفه الأسمى . سيذهب إلىبلاد العقل والحرية لتستنير بلاده فيه . وتقول الأخت أموراً حول الحفاظ على الهيكل العائلي ، وأن الاسلام دعا إلىالعلم والرسول قال اطلبوا العلم ولو في الصين .

ـ أرأيت . أنت أكثر إدراكاً من ذلك الصهر المتحجِّر . ياأختي العقل هو الله في هذا الزمن الفاسد ، زمن الظلام والعنف والطوائف والانحدار البربري نحو الهمجية . ومع ذلك أنت وزوجك مازلتما تعيشان في عصور الكهوف المعتمة .

وحين كانت الأم المسكينة ، والورعة ، بحنانها وبراءتها ، تفصح عن خوفها على الابن من المستقبل الغامض مذكِّرة أخاها بما جرى له من أهوال وتعذيب أفقده نصف سمعه مع شلل جزئي وعرج

جرَّاء الصدمات الكهربائية ، كان ذلك الخال الذي دُمِّرت عضويته ، وظلت روحه كالطود في مواجهة هستيريا العسف ، يجهر في وجه أخته بأنه ليس نادماً ، ولا آسفاً لما جرى له : التشويه ياأختي وهذا الخلل العضوي وصمة عارهم ورمز فخاري في عصر الجلادين والطغاة . القوة والوحشية هما الوجه المظلم للتاريخ ولعنة الأبد التي لايمحوها سوى العقل والحرية .

وبنبرة ، شبه رسولية ، هو المحتقن بالمرارة والمفعم بالأمل ، يضيف وهو على أبواب الشهقة الجريحة : نحن شمس العالم القادمة وهم الظلمة الراهنة ، وناجي الآن يتجه نحو الضوء .

***

أي ضوء عناه خالي وأنا الآن في هذا التيه ، مسافر مطرود ، سائب على وجه الأرض ، تتقاذفني المدن والقطارات والمحطّات المؤقتة . طائر مهاجر ، مهدَّد بالموت ، مهدَّم الروح وبلا أمل .

ـ ترك . ترك . ترك . ترك .

في الرأس دوي عجلات هذا القطار ، عابر السهوب والأودية والهضاب ، في النهارات والليالي . لا أدري إلىأين سيوصلني وكيف يرميني ليبدأ من جديد تيه آخر .

ترى هل بدأت الرحلة أم أنها في طور نهايتها ؟

كيف أتجه الان ، وأنا بلا بوصلة في وقت زائغ ، والشمس على حافة أفقٍ غباري امَّحت فيه معالم الأشياء ؟

أقول سراً أو جهاراً للمرأة التي صدمتها وصدمتني : أنا إنسان مغدور حافل بالفواجع ولا أملك طاقة الحبّ . مجُوف يادميانة كما طوف في منحدرات الأنهار .

هي كانت ترى في هذه الهذيانات نوعاً من إصابة جرثومية منشؤها رياح الشرق المسمومة ، وانهمار أحلام مستحيلة ، ورغائب كسيحة حول أفكار دونكيشوتية ترمي إلىتغيير العالم

بفعل برق صاعق .

ـ لا . لا . فقط أنا رجل بلا سلاح في ظلمة القوة العمياء التي تتحكم بالمصائر وتقود البشر عنوة إلىالجحيم . ماذا يستطيع الانسان الذي يرى ، رغم اشتداد الظلام ، معالم الضوء وهو أشلّ ومحاصر ؟

ـ ولكن لماذا لاترى الضوء في عينَي امرأة تحبك . امرأة ترى فيك الأمل والمستقبل ؟

ـ الأمل والمستقبل !

إيَّاها الكلمات ، في مدلولها التجريدي ، التي حكى عنها خال ناجي العبد الله . أن ترمّم ، كنبي أسطوري ، ما تناثر وفسد وانحطم منذ ربع قرن . التهريجي في المشهد كان هذا التعويض البخس ، والمقايضة بوطن غارق في الوحل ومتاهات الدم .

هي لم تكن ترى سوى الحيِّز العضوي للمشهد ، وداخل هذا المجال المغناطيسي كانت المعادلة تتراءى لها محلولة .

كان الوطن في قراراتها هذان الجسدان وهما يمرحان بسعادة في ليالي الحرية قرب شواطىء البحر الآمنة .

ولعل الأمر في جوهره ماكان بعيداً عن الحقيقة في نطاق علاقة الرجل والمرأة ، في كون صحِّي ومعافى من الأوبئة وترانيم زمانهما المريض والآيل إلىالغروب .

ماكان مسرحياً في الحكاية المتخيلة كلها ، تكهنات الخال الذي رأى فيه وريثاً للفداء والثأر . سليل جديد يعبر خطوط النار والظلمة ويواصل الكفاح ، انتقاماً للأهل الذين ذُبحوا بلا ذنب في تلك الليلة التي لاتنسى في أرشيف الذاكرة .

وهذه الإيقاعات تتوالى من نافذة القطار على شاشة الفضاء ، جاء الذُّهان الغَيْري والمرضي لعبد الرحمن التاجي وهو يتوهم

الخيانة على بعد أمتار من مضجعه . بدا الاعتراف له وإيضاح الحقيقة ، هو الواقع فريسةَ استيهاماته الفاسدة ، ضرباً من العبث ونوعاً من التكفير والتبرئة .

ـ هلا اختلاء رجل بامرأة لايعني شيئاً سوى الإثم ـ الجنس بالضرورة ؟

لكم رغبتُ قبل أن أرحل سرّاً في ليلة عاصفة من تلك البلدة دونما وداع لدميانة ، الدخول إليه والاعتراف بسرّ الأشياء لأبدد وهمه وأمحو الضغينة من خلايا رأسه وانفجارات دمه .

ـ أخي عبد الرحمن كلانا في مجرى الهلاك . أنا ماانتهكت شرفك ولا اعتديت على حرمتك . بل أنا مثلك منتهك وأنت ضحية وهم .

ـ هي وأنت زانيان شرعاً .

تقول وقائع الليالي والسحب السوداء ورؤى العزلة القاسية والقلب المهجور .

ـ ولكنني لست مسؤولاً عن تشويه حياتك القديمة .

ـ بل أغويت امرأة ضعيفة وغدرت بي وأنا عاجز . لقد خُنتَ الضيافة ولوثتَ الخبز والملح الذي أكلناه معاً .

كيف يمكن جلاء الأحزان والمرارات والمصادفات العمياء للوصول إلىجوهر المسألة وكشف الحقيقة ؟ وأين يكمن سرّ الخراب والتشوّه في هذه الشبكة المعقدة ؟

الحوارات المتخيلة ، عبر حكاية غامضة ، ملتبسة . استيهامات الوضع البشري العالق في مصيدة ، وجودية في آنٍ ، وتاريخية في آنٍ آخر . آنَ طيور الدم تصرخ بالثأر حيث لا وقت للحب . والحب محرَّم ومشتهى ، يحرق الشرايين والأوردة في أماسي الهجرة والمنافي والعزلة القاسية .

كان ملقى الرأس على زجاج نافذة القطار ، منهوباً وتائهاً في

ضباب هذه التخيلات إذ لاح له سرب من اللقالق المهاجرة ، يرقص بدوائر إهليلجية كما راقصات الباليه على مسرح السماء الزرقاء .

ـ خذيني معك أيتها اللقالق البيضاء .

❊ ❊ ❊

كانت التحولات التي بدت في اللقاءات العابرة مسلية حيناً ، وعبثية أحياناً ، هي ذي تنعطف نحو مجرى آخر شديد الانحدار . زوج مطعون في شرفه ، وامرأة مستثارة في وقت صاعق ، حدث ذلك في الوقت الذي تشير فيه العلامات : أن لا أمل . إذ انبثقت من تخوم البحر أو الجزر أو مجرات الجنون هذه الأنثى . حوَّاء الساحرة . الأفعى الملساء المُغوية التي تبدِّل قشرتها في فصول الخصب والغواية . هي ذي تعرى تحت الشمس كما إلهة الينابيع وشطآن البحر . يقول إشعاع صوَّان الجسد : انسَ تاريخيك واتبعني . أنا دمك الدوَّار .

وها أنذا في ظليل الوعي واللاوعي ، أدخل تيه دوارها المغوي . أرى ولا أرى ، طيّ موجها ، إلىأين اتجه .

ـ اتبع الدم . وهي توغلني في العري الحريري الدفاق .

ـ آه . الموت . أعزل ومهجور في عمق ذلك الغسق الضاوي .

كيف تستطيع الخروج من هذه المصيدة التي أطبقت عليك ، وأنت هارب من مصيدة أكثر إيلاماً ونزفاً . والعالم حولك يتداعى كما جبل انفجر فيه بركان . وأنت وحدك على هذه الشواطىء الأطلسية ترسم على أفق البحر لوحات المقهورين والضحايا وشوقك إلىحياة لها معنى . الواحد والآخر في ميلودراما هذا المسرح العبثي الآيل إلىهلاك البشر والله .

في الهزيع السحري يأتي دوي البحر وصرخة دميانة وأصوات أهلك الذين توضؤوا بدمائهم ، عشية ذلك الهجوم البربري ، وأنت ترى وهج المدينة المؤتلقة بالاشعاع الأخضر والرمادي وأرجوان الشفق .

ولو سألت : ما الفرق بين الشاهد والشهيد في أزمنة العجز والعار وقوة الوحش هل ستقف على أبواب البراءة ؟

ماكنت قادراً ، في تلك العصور الغاربة ، على التركيز والإجابة على الأسئلة . وكما ارتجاج عجلات هذا القطار المخترق سهوب وهضاب أفريقيا ، حيث لاأدري أين تنتهي محطاته وفي أي منها يرميني ، كذلك كان عقلي يرتج ويتناثر .

ـ لابد من الرحيل أخيراً . قلت لدميانة قبل وقت .

وهي تسمع الجملة غير مصدقة صرخت : إلىمتى هذا الهروب ؟ أما آنَ لك أن تجد مرفأً ترسو فيه ؟

ـ الروح مضطربة والثبات في مكان هو الموت . الجحيم في كل مكان . تراءت العواصف تجتاح البحار ، والسفن تتأرجح بين غمرات الموج العالي .

كنّا جميعاً في مهب الأعصار والموت الذي يقرع الأبواب .

دوّارات من العمى والعجز وهيجانات الشهوة ولزوجة الخيوط . ممسوسون وغير قادرين على الخلاص من هذه المحنة .

تيه صحراوي ، حارّ وملعون .

ميراث الدم الفاسد مازال يسري فينا .

هكذا في ذلك الوقت الوحشي ، وقت التدجين ، والهرج ، والنسيان ، ضاعت الجهات وهوينا في لجّ الضباب الأعمى .

إنها هناك على بعد الأنف . رائحتها في الفراش وجلد الجسد . الرائحة التي تقودك إلىالهاوية بعد انحراف الرحلة عن مسارها ، وبعد أن طاش السهم عن مرماه فتحولت إلى وثني في المعبد المقدس . تشعل النيران في احتفالات الليل ، رافعاً طقوس الابتهال للسيد الإله في الغابة العارية .

ـ أنا وأنت قطبا العالم . منا يبدأ الكون وفينا ينتهي .

اتبع هذا الدم النقي وتطهر من الدم الفاسد . عاد الرنين من

جديد .

تحت تأثير هذا الانهمار الطاغي للجسد والروائح والألوان ، رأى ناجي العبد الله هلاكه : أنتِ موتي .

ـ أنا منجاتك وشراعكَ في هبوب العواصف . اخرج من كوابيسك وثارات القبائل .

وما كان معروفاً في تلك البرهة الضائعة ، والمضطرمة ، من سيموت ومن سينجو . كما ما كان مدركاً بدقة من الذي أخطأ ومن أصاب .

وفي اللحظة التي خُيل إليه أن موت أحدهما هو الخلاص ، ومضت على جدار كهف الذاكرة شرارات تاريخ مهانتها واغتصابها .

بدت المحاكمة ، في ذلك الوقت الأخير ، وهما معاً في المدار البدائي للزمن والجنس ، وصراخ الروح ، شبيهة بيوم القيامة داخل نفق مغلق بلا ربّ ولا قاضٍ ولا شهود .

هي الأنثى إذن !

البديل في ختام المطاف . حيث تنسى العالم الذي يدوي ويحتدم ويتداعى حولك .

ومن الخارج ، من حدود البحر ، جاءته أصداء ونداءات واستغاثات بعيدة . اختلطت بدويّ قنابل وانفجارات . بدت الحالة كما لو أنه غارق في حلم سريالي ملوّن وكابوسي ، وهما في غمرة الوداع الأخير . وعبر الظلال لبيت يشتعل بنيران فوسفورية سمع صوتاً يشبه صوت أبيه قادماً من أغوار بعيدة : أنت من مات !

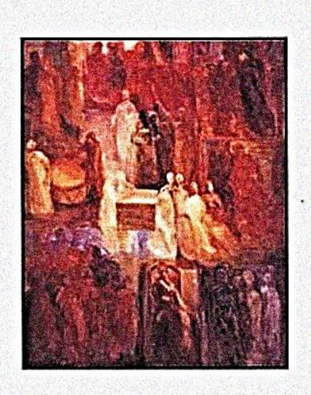
الفهرس

هو الإيناس حتى لا نشعر بالكآبة. اقتراب من حكايات شهرزاد في الأزمنة الغابرة. إنما هنا ينبغي الحذر من الفخاخ المنصوبة في درب الحكاية. إننا نحاول في هذا العصر الملغوم رواية وقائع مؤنسة، مؤسية بعض الشيء، لنزيح هذا الكابوس اللعين: الضجر.

ها نحن نثير مغامرات داخل حكاية ربما كانت حقيقية، وربما ابتدعتها مخيلة شيطانية أو إلهية، لا فرق.

إذا كان لا بدّ من قول الحقيقة، وهي في الحكايات غير ضرورية فإن القسم الأكبر من هذه السيرة المتحركة التي تلت ولوج البحر، لا يعدو كونه تركيباً شهوانياً ينزع إلى السير فوق صراط الجنة والجحيم عبر مطهر الموت.

ولكن ثمة حكايات ذات معنى، وحكايات خاوية سوى من الهراءات، وحكايات ملتبسة في مجازاتها. غامضة لكنها مُشعّة كعروق الماس في الصخر.





علي مولا